بيان أحوال الناس
يوم القيامة

ويليه

الفتن والبلايا والمحن والرزايا

كلاهما تأليف

سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي
المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

ويليهما

القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراط الساعة

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي
المتوفى ٩٠٢ هـ

ويليه

تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان

للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي
المتوفى ١٠٣٣ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل   أحمد فريد المزيدي

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



الطبعة الثانية
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

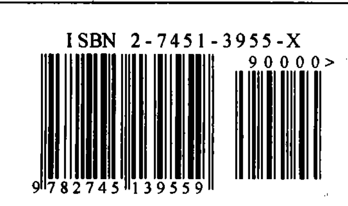
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str.. Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3955-X



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com



بيان أحوال الناس يوم القيامة

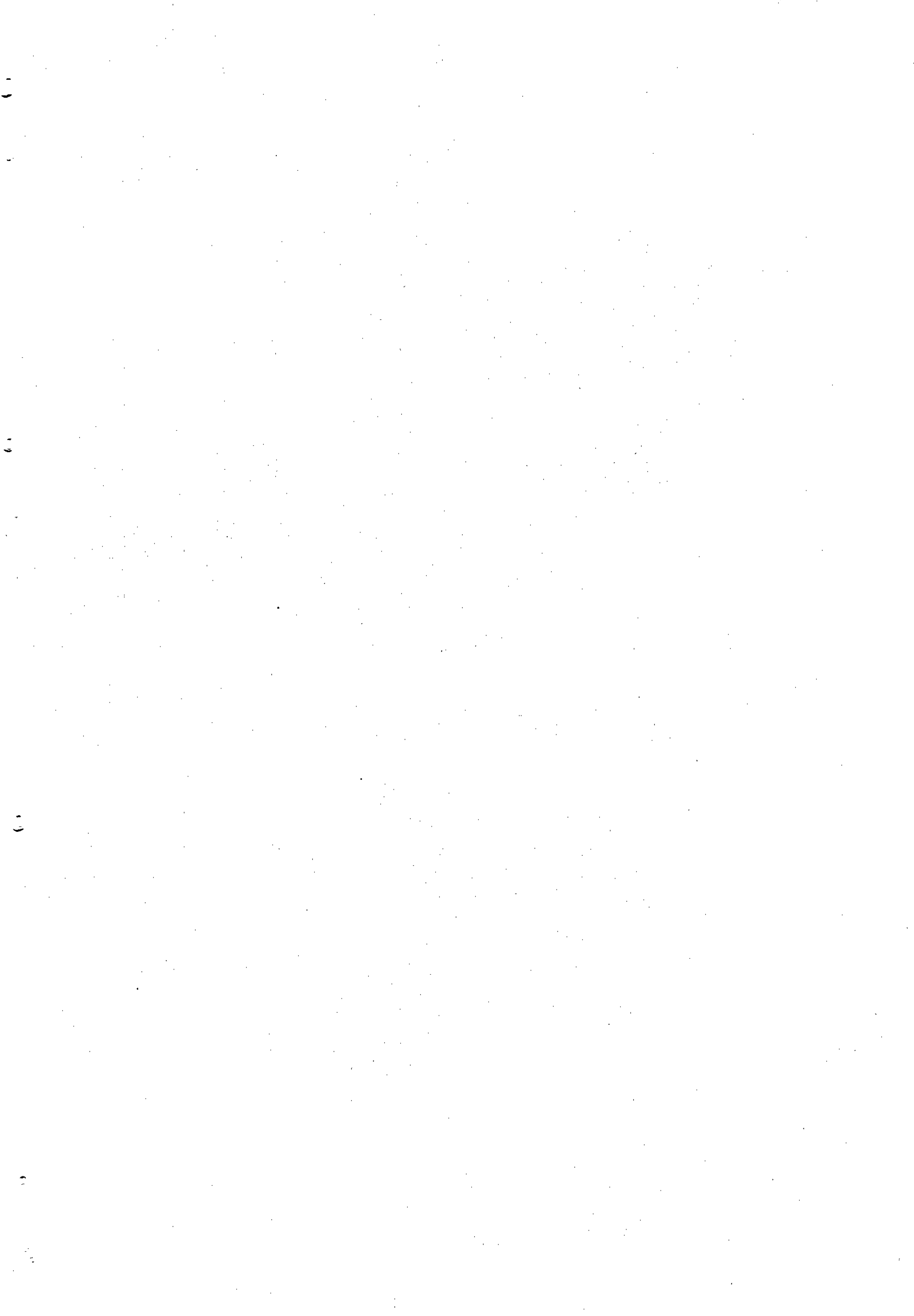
تأليف

سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي

المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل　　أحمد فريد المزيدي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً طيباً كما ينبغي لوجهه الكريم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فهذه رسالة قيمة نافعة في بيان أحوال الناس يوم القيامة وذكر الخاسرين والرابحين منهم، للشيخ الكبير سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، المتوفى سنة ٦٦٠هـ.

واعتمدنا هذه الرسالة على نسخة مكتبة الأسد، خط سنة ٦٦٩هـ، وكذلك مطبوعة دار الصحابة، طنطا، وطبعة دار الفكر المعاصر، وبعضاً من الرسالة في طبعة مصرية قديمة ضمن قواعد الأحكام.

وآخراً، نسأل الله التوفيق والتيسير لما يحبه ويرضاه.

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره فالجواب
من وجهين أحدها أن هذا من دفع المفاسد
ومثقال الذرة من طلب المصالح والثاني
وهو أولى أن رتب شعب الإيمان المجازي ينتهي
بإماطة الأذى عن الطريق لأن شعب الإيمان أفضل
من غيرها من أنواع الإحسان فإنا نعلم أن مميط
الأذى عن الطريق محسن إلى كل مجتاز بالطريق
وهذا من الفعل الواحد الذي يتضاعف أجره
بتضاعف المنفعة كالمؤذن والخطيب يتضاعف
أجرهما بتضاعف أعداد سامعيهم وكذلك
أمر الجماعة بمعروف واحد بلفظ واحد ونهي
الجماعة عن منكر واحد بلفظ واحد وكذلك
التبشير والإنذار [illegible] بحمد الله وعونه على يد فقير عفو ربه
عبد [illegible] اللهم اغفر له ولوالديه ولمالكها ولمن نظر
فيه ودعا لهم بالمغفرة والموت على الإسلام وللمسلمين أجمعين
وصلى الله على [illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

ترجمة موجزة للمصنف

الإمام الشيخ العلامة الفقيه المجتهد حجة الإسلام، شيخ الإسلام، عز الدين: أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السلمي الدمشقي الشافعي صاحب التصانيف.

ولد سنة ٥٧٧هـ أو في التي بعدها.

من شيوخه الموازيني، والخُشُوعي، والقاسم بن عساكر، وعمر بن طبرْزَد، وحنبل بن عبد الله، وغيرهم كثير.

وحدَّث وأخذ عنه: الشيخ الدمياطي، وابن دقيق العيد، وأبو الحسين اليُونيني، وشهاب الدين ابن فرح، وعلم الدين الداوداري، وابن بهرام، وكثير من علماء مصر والقاهرة.

قال عنه جمال الدين ابن الحاجب: «ابن عبد السلام أفقه من الغزالي».

وقال ابن دقيق العيد: «كان أحد سلاطين العلماء».

وقال الذهبي: «برع في الفقه والأصول، والعربية، ودرّس وأفتى وصنّف، وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب مع الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين.

من مصنفاته

١ ـ تفسير العز ـ مختصر النكت والعيون للماوردي ـ طبع حديثاً.

٢ ـ شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ط بالآستانة سنة ١٣١١، ١٣١٣هـ، وطبع حديثاً بدار الكتب العلمية ـ بيروت، بتحقيقنا محمد فارس.

٤ _ الإمام في بيان أدلة الأحكام، ط بدار البشائر ـ دمشق.
٥ _ ترغيب أهل الإسلام في سُكنى الشام، ط ببيروت.
٦ _ بداية السُّول في تفضيل الرسول، ط ببيروت.
٧ _ الأنواع، ط ببيروت.
٨ _ أحكام الجهاد، طبع ببيروت.
٩ _ أمالي العز (فوائد في مشكل القرآن) طبع بجدة، والكويت.
١٠ _ شرح حديث أم زرع، ط بتحقيق الألباني ١٣٩٧هـ.
١١ _ الفوائد في اختصار المقاصد (القواعد الصغرى) ط ببيروت.
١٢ _ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، وهو من أشهر كتبه، طبع كثيراً.
١٣ _ مقاصد الصلاة، ط.
١٤ _ مقاصد الصوم، ط.
١٥ _ مقاصد الرعاية، طبع ببيروت.

هذا وقد صنّف العز الكثير ما بين مخطوط ومفقود. وقد توفي رحمه الله سنة ٦٦٠هـ.

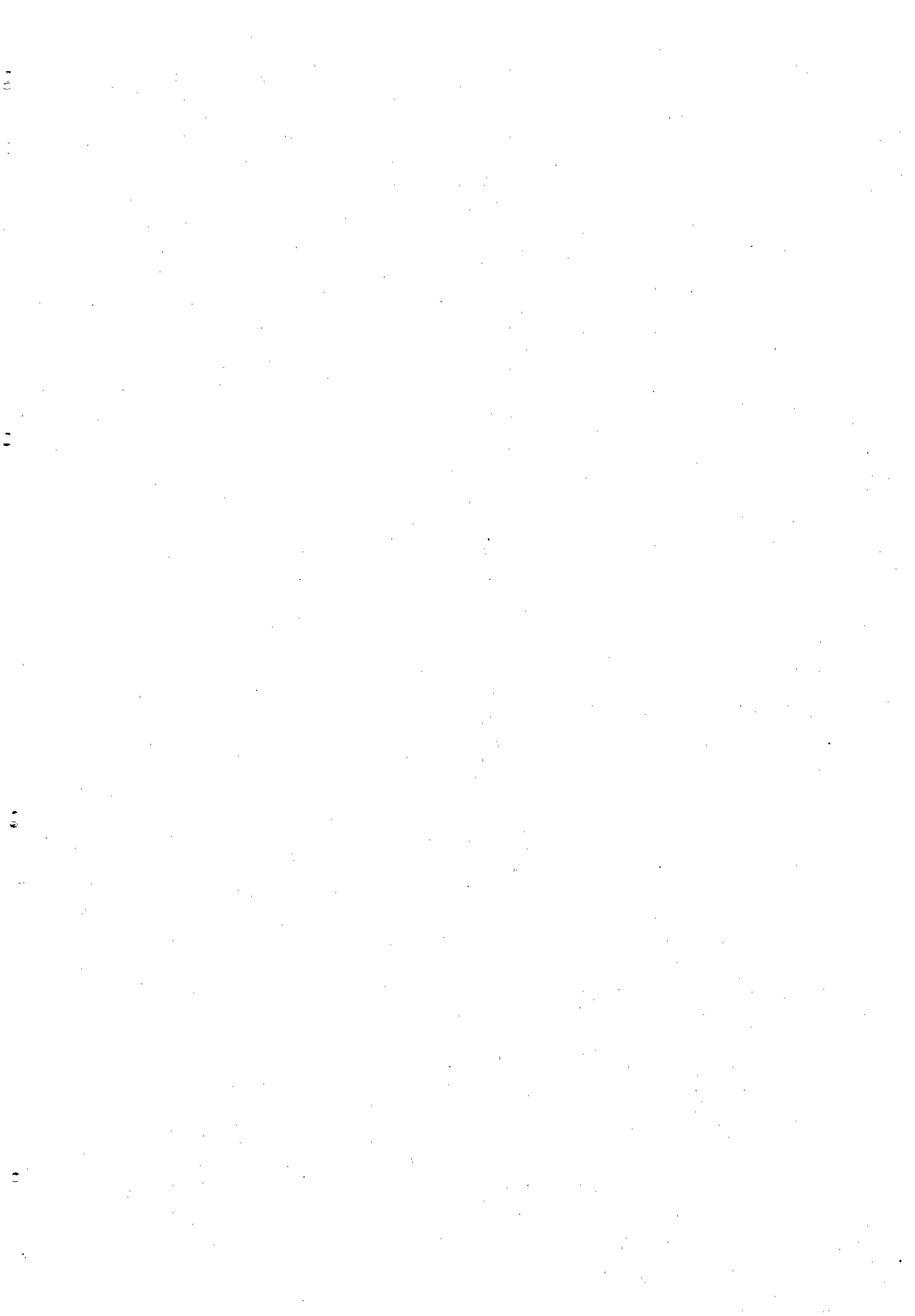
وانظر في ترجمته:

١ _ طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢١٨، ٢٤٥).
٢ _ البداية والنهاية لابن كثير (وفيات سنة ٦٦٠هـ).
٣ _ تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٠٨).
٤ _ حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).
٥ _ دول الإسلام للذهبي (٢/ ١٦٦).
٦ _ سير أعلام النبلاء له (١٧/ ٣٢، ٣٤).
٧ _ طبقات الشافعية للأسنوي (٢/ ١٩٧، ١٩٩).
٨ _ طبقات الشافعية لابن كثير (٢/ ٨٧٣، ٨٧٥).
٩ _ طبقات الشافعية لابن هداية الله (٢٢٢، ٢٢٣).
١٠ _ طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣١٥، ٣٢٩).
١١ _ العبر للذهبي (٣/ ٢٩٩).
١٢ _ عقود الجمان للعيني (١/ ٣٣٨، ٣٣٩).

١٣ - فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٣٥٠، ٣٥٢).
١٤ - مرآة الزمان لليافعي (٢٧٩، ٢٨٠/ب).
١٥ - معجم المؤلفين لكحالة (٥/ ٢٤٩).

كتبه

أبو الحسن: أحمد فريد المزيدي



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وبه نستعين وما توفيقي إلا بالله.

أخبرنا المشايخُ الأئمةُ نور الدين أبو الحسن علي بن إسماعيل بن قريش المخزومي، ومجدُ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن الخَيْمِي في آخرين إذناً قالوا:

أخبرنا الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام السُلمي الشافعي المؤلف إجازة، قال:

١ - فصل في بيان أحوال الناس

معظم الناس خاسرون وأقلُّهم رابحون؛ فمن أراد أن ينظُرَ في خُسره وربحه فليعرض نفسه على الكتاب والسُنَّة، فإن وافَقَهما فهو الرابح إن صدق ظنه في موافقتهما، وإن كذب ظنه فيا حسرة عليه.

وقد أخبر الله بخسارة الخاسرين وربحِ الرابحين فأقسَم بالعصر إن الإنسان لفي خُسرٍ، إلا من جمع أربعة أوصاف:

أحدها: الإيمان.

والثاني: العملُ الصالح.

والثالث: التَّوَاصي بالحقّ.

والرابع: التَّوَاصي بالصبر.

وقد رُوِيَ أنَّ الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفترقوا حتى يقرؤوها[١].

واختُلِفَ في العصر، فقيل: هي الصلاة الوسطى: صلاة العصر. [وقيل: العصر] آخر النهار[٢].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٥١).

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي (١/ ٥٣٧).

وقيل: العصر الدهر(١).

واختُلفَ في الصَّالحات، فقيل: هنَّ الفرائض(٢).

وقيل: هي الأعمال الصالحات.

واختلف في الحقّ، فقيل: هو الله، والتقدير: وتواصَوا بطاعةِ الحق.

وقيل: الإسلام.

وقيل: القرآن(٣)، والتقدير: وتواصَوا باتّباعِ الحق، كقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

وأما الصبر فيحتمل: أن يُرادَ به الصبر على الطاعات(٤)، فيدخل فيه الصبر على المعصية، وعلى الطاعة.

ويحتمل: الصبر على المصائب والبَلِيَّات.

ويحتمل: الصبر على البليَّات والطاعات، وعن المعاصي والمخالفات.

واجتماعُ هذه الخصال في الإنسان عزيز نادر في هذا الزمان، وكيف يتحقق الإنسان أنه جامعٌ لهذه الصفات التي أقسم الله على خُسرانِ مَن خرج عنها، وبَعُدَ منها مع علمه بقُبحِ أقواله، وسُوءِ أعماله: فكم من عاصٍ يظُنُّ أنه مُطيعٌ، ومن بعيدٍ يعتقدُ أنه قريب، ومَن مخالفٍ يعتقدُ أنه موالف، ومن منتهِكٍ يعتقد أنه متنسِّك، ومن مُدْبِرٍ يعتقد أنه مُقبل، ومن هاربٍ يعتقد أنه طالب، ومن جاهلٍ يعتقدُ أنه عارف، ومن آمن يعتقدُ أنه خائف، ومن مُرَاءٍ يعتقد أنه مخلص، ومن ضالٍّ يعتقد أنه مُهتدٍ، ومن عَمٍ يعتقد أنه مُبصِر، ومن راغبٍ يعتقدُ أنه زاهد.

كم من عملٍ يعتمدُ عليه المُرَائي وهو وَبالٌ عليه، وكم من طاعةٍ يَهلِكُ بها المسمِّع وهي مردودةٌ إليه.

والشرع ميزان يُوزنُ به الرجال، وبه يَتبيَّنُ الرِّبح والخسران، فمن رجح في ميزان الشرع كان من أولياء الله.

وتختلف مراتبُ الرُّجحان، فأعلاها مراتبُ الأنبياء فمن دونهم، ولا تزال تتناقص الرُّتب إلى أن تنتهي إلى أقلِّ مراتب الرُّجحان.

(١) رواه الطبري في «جامعه» (٣٠/ ٢٩٠) عن الإمام علي.

(٢) رواه الطبري في «جامعه» (٣٠/ ٢٩٠) عن مجاهد.

(٣) روى هذا الأثر الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٢٩٠، ٢٩١)، عن قتادة، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٩١).

(٤) رواه الطبري (٣/ ٢٩١) عن الحسن وقتادة.

ومن نقص في ميزان الشَّرعِ فأولئك أهل الخُسران، وتتفاوتُ خِفَّتُهم في الميزان؛ فأخسُّها مراتب الكُفّار، ولا تزالُ المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى مرتبة مرتكبِ أصغرِ الصغائر.

فإذا رأيت إنساناً يَطيرُ في الهواء، ويمشي على الماء، أو يُخبرُ عن المغيَّبات ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرَّمات بغير سببٍ [محلّل]، ويترك الواجبات بغير سبب مجوِّز، فاعلم أنه شيطان نصَبه الله فتنةً للجَهَلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال، فإن الدجال يُحيي ويُميت فتنة لأهل الضلال؛ وكذلك يأتي الخربة فتتبعه كُنوزها كيَعاسيب النحل؛ وكذلك يظهر للناس أن معه جنَّة وناراً، وناره جنة، وجنته نار؛ وكذلك يأكلُ الحيّات، ويدخلُ النيرانَ ليقتدوا به في ضلالته ويُتابعوه على جهالته[1].

٢ ـ فصل في معرفة تفضيل بعض الموجودات الحادثات على بعض

الجواهر والأجسام كلها متساوية من جهة ذواتها، وإنما يفضُلُ بعضها على بعض بصفاتها وأعراضها، وانتسابها إلى الأوصاف الشريفة، والفضائل النفيسة.

والفضائل ضربان:

أحدهما: فضائل الجَمادات، كفضل الجوهر على الذهب، وفضل الذهب على الفضة، وفضل الفضة على الحديد، وفضل الأنوار على الظلمات، وفضل الشّفاف على غيرِ الشّفاف، وفضل اللطيف على الكثيف، والنَّيِّرِ على المُظلِم، والحَسن على القبيح.

الضرب الثاني: فضائل الحيوان، وهي أقسام:

أحدها: حُسنُ الصُّور.

والثاني: قوة الأجسام كالقُوى الجاذبة، والممسِكة، والدافعة، والغازِية، والقُوى على الجهاد، والقتال، وحمل الأعباء والأثقال.

والثالث: الصفات الداعية للخُيُور، والوازعة عن الشُّرور كالغيرة والنَّخْوَة، والحياء، والشجاعة، والحِلْم، والأناة، والسخاء.

---

(١) **فائدة**: قال المصنف: والتواصي بالخيرات وسيلة إلى فعلها، وفضلها مأخوذ من فضل المتوسل إليه، فالوصية بالإسلام أفضل الوصايا، والوصية بالصبر تختلف باختلاف مراتب الصبر، والوصية بالرحمة تختلف باختلاف مراتب الرحمة، وتختلف مراتب الرحمة باختلاف مراتب المرحوم، من عظم الفاقة وشدة الضرورة وغيرهما (شجرة المعارف والأحوال) بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

الرابع: العُقول.

الخامس: الحواس.

السادس: العلوم المكتسبة وهي أقسام:

أحدها: معرفة وجود الإله وصفاته: الذاتية، والسَّلْبية، والفعلية.

الثاني: معرفة إرسالِ الرُّسُل، وإنزال الكتب، وتنبئةِ الأنبياء.

الثالث: معرفة ما شرعَه الله في الأحكامِ الخمسة وأسبابها، وشرائطها، وموانِعها[١].

السابع: الأحوال الناشئة عما ذكرناه من المعارف؛ كالخوف، والرجاء، والمحبة، والحَياء، والتوكُّل، والتعظيم، والإجلال.

الثامن: القيامُ بطاعة الله في كل ما أمر به أو نهى عنه.

التاسع: ما رتَّبه الله على هذه المعارف والأحوال والطاعات من لذَّات الآخرة وأفراحِها بالنَّعيم الجُثماني والروحاني؛ كلذّة الأمنِ من عذابِ الله، والأنسِ بقربهِ وجواره، وسماعِ سلامِه وكلامه، وتبشيره بالرِّضا الدائم، وكذلك النظر إلى وجهه الكريم مع الخلاَص من العذاب الأليم[٢].

فهذه فضائل، بعضها أفضلُ من بعض، فمن اتّصف بأفضلها كان أفضلَ البريّة، ولا شك أن معرفة الله ومعرفة صفاته ولذّاتِ رضاه، والنظر إلى وجهه أفضل مما عداهُنّ.

وأفضل الملائكة من كان به أفضلُ هذه الصفات، فإن تساوى اثنان من الملائكة في ذلك لم يفضُلْ أحدهما عن الآخر، وكذلك إن تساوى المَلَكُ والبَشرَ في ذلك لم يُفَضَّل أحدهما على الآخر، وإن فضل البشرُ على الملك بشيء من ذلك كان أفضل منه، وإن فَضُلَ الملكَ على البشر بشيء من ذلك كان أفضل منه.

والفضلُ منحصِرٌ في أوصاف الكمال. والكمال إما بالمعارف والطاعات والأحوال، وإما بالأفراح واللذّات، فإذا أحسن إلى أجساد الأنبياء [والأولياء] بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، وأحسَنَ إلى أرواحهم بالمعارف الكاملة، والأحوال المتوالية، وأذاقهم لذّة النظر إليه، وسرور رضاه عنهم،

---

(١) والأحكام الخمسة هي: الوجود، والتحريم، والندب، والإباحة، والكراهة.

(٢) انظر: شجرة المعارف للمصنف، الفصل التاسع في أسباب الفضائل، وجعل أسبابها: كسبية وغير كسبية. . .

وكرامة تسليمه عليهم فمن أين للملائكة مثلُ هذا؟

واعلم أن الأجساد مساكن الأرواح، وللساكن والمَسْكَنِ أحوال:

أحدها: أن يكون الساكن أشرفَ مِنَ المَسكَن.

الثانية: أن يكون المَسكَنُ أشرفَ مِن السَّاكن.

الثالثة: إن استويا في الشرف فلا يُفضَّلُ أحدهما على الآخر، وإذا كان الشرف للساكن فلا مبالاة بخساسة المسكَن، وإذا كان الشرفُ للمسكَنِ فلا يتشرَّفُ به الساكن؛ والأجسادُ مساكنُ الأرواح.

وقد اختلف الناس في التفضيل الواقع بين البشَر والمَلَك، فإن فاضلَ بينهما مُفضِّل ـ من جهة تفاوتِ الأجساد التي هي مساكنُ الأرواح ـ فلا شكَّ أن أجساد الملائكة أفضل وأشرفُ من أجسادِ البشرِ المركبّةِ من الأخلاط المُستقذَرة.

وإن فاضلَ بين أرواح البشر وأرواح الملائكة ـ مع قطع النظر عن الأجساد التي هي مساكنُ الأرواح ـ فأرواحُ الأنبياء أفضلُ من أرواح الملائكة، لأنهم فُضِّلوا عليهم من وجوه:

أحدها: الإرسال، ورُسُلُ الملائكة قليل، ولأنَّ رسولَ الملائكة يأتي إلى نبيٍّ واحد، ورسولَ البشرِ يأتي إلى الأُمم، وإلى أمةٍ واحدة، فيَهدِيهُم الله على يديه، فيكون له أجرُ تبليغِه، ومِثْلُ أجرِ مَنِ اهتدى على يديه، وليس مثل هذا للمَلَك.

الوجه الثاني: القيامُ بالجهادِ في سبيلِ الله.

الوجه الثالث: الصَّبر على مصائبِ الدنيا ومحنتِها: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الوجه الرابع: الرِّضا بمُرِّ القضاءَ وحُلْوه.

الوجه الخامس: نفعُ العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفعُ المكاره، وجلبُ المنافع، وليس للملائكة شيءٌ من هذا.

الوجه السادس: ما أعدَّ الله في الآخرةِ لعبادهِ الصالحين، مما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطَر على قلبِ بشر، ولم يثبت للملائكة شيء مثل هذا.

الوجه السابع: ما أعدّ الله في الآخرة لهم من النَّعيم الروحاني، كالأنس والرضا، والنظر إلى وجهه الكريم، ولم يَثْبُتْ مثل هذا للملائكة.

فإن قيل: الملائكةُ يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، والأنبياء ينامون ويفترون؟

قلت: إذا فَتَر الأنبياءُ عن التسبيح، فقد يأتون في حال فتورِهم من الثناء على

الربّ، ومن الطاعات والعبادات مما هو أفضلُ من التسبيح؛ والنوم مختصٌّ بأجسادِهم، وقلوبهم متيقِّظة غير نائمة، وسَيُسَاوونهم في الآخرة في إلهامِ التسبيح كما يلهمون النفس.

الوجه الثامن: وهو مختصٌّ بآدمَ عليه الصلاة والسلام، أن الله عرَّفه من أسماء كل شيءٍ، ومنافعه ما لا يعرفون.

الوجه التاسع: وهو أيضاً مختصٌّ به أنَّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، ولا شك أن المسجودَ له أفضل [وأشرف] من الساجدين.

وعلى الجملة فيما يفضُلُ الملائكة على الأنبياء إلا من بنى التفضيل على خيالات توهَّمها، وأوهامٍ فاسدةٍ اعتمدَها.

وكم يتقرّرُ في الخيالات والتوهُّمات من أمورٍ يعلم الله خلافَها!

بل قد يرى الإنسان اثنين، فيظُنّ [أنَّ] أحدهما أفضل من الآخر، لما يراه من طاعته الظاهرة، والآخَرُ أفضلُ منه بدرجاتٍ كثيرة، لما اشتمل عليه من المعارف والأحوال، والقليلِ من الأعمال، ألا عرف خير القليل من الكثير من أعمال العارف!.

وأين الثناءُ من المستحضِرين لأوصافِ الجَلال، ونُعوتِ الكمال، من ثناء المسبِّحين بألسنتِهم، الغافلين بقلوبهم.

ليس التَّكَحُّلُ في العينَيْنِ كالكَحَل

ليس استجلابُ الأحوالِ باستذكارِ المعارف، كحضور المعارف بغير سعي ولا اكتساب.

فإن قيل: سَلَّمنا أن الأنبياء فضلُوا الملائكة بما ذكرتم، وأن أجسادَ الملائكة فضلَتْ أجسادَ الأنبياء بما ذكرتموه، ومعظم الفضائل إنما هو بشرفِ المعارف والأحوال، فَلِمَ قلتم: إنَّ الأنبياء أفضلُ من الملائكة في ذلك؟

قلنا: أنتم مطالَبُون بمثلِ هذا، ثم لا يخلُو ما ذكرتموه من أحوال:

أحدها: أنْ يستويَ المَلَكُ والنبيُّ في المعارفِ والأحوال، فتفضَّل الأنبياءُ على الملائكة بما ذكرناه من نعيمِ الجِنان، ورِضا الدَّيّان، والنظرِ إلى الرحمٰن.

الثانية: أن تكون الأنبياءُ أفضلَ من الملائكة بالمعارفِ والأحوال، مع ما انضمَّ إليه من الأعمالِ ونعيم الجنان، ورضا الدَّيَّان، والنظرِ إلى الرحمٰن، فتكون الأنبياء أفضل من الملائكة بثلاثة أسباب.

الثالثة: أن يكون المَلَكُ أفضلَ بالمعارفِ والأحوالِ من النبيّ، فيكون النبيُّ أفضلَ مِن المَلَك بما ذكرناه من العبادات المختصة به وبنعيم الجِنَان، ورضا الدَّيَّان،

والنظر إلى الرحمٰن، ولا عبرة بفضل أجسادِهم على أجسادِ الأنبياء، لأن الأجساد مساكن، ولا شرَفَ بالمساكن، وإنما الشَّرَفُ بالأوصافِ القائمةِ بالسّاكن.

والاعتبار إنما هو بالساكنين دون المساكن، فإن الأنبياء قد سكنوا في بطونِ أمهاتهم مع القطعِ بأنهم أفضلُ مِن أُمَّهاتهم.

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما[١]

فَرُوحُ المسيح أفضلُ من جسدِ مريم، وكذلك روح إبراهيم عليه السلام أفضل من جسدِ أُمِّه، وكذلك روح الرسول عليه السلام أفضل من جسد أُمه.

وأما من كَفر من أولاد المؤمنات فهم شرُّ البَليّة، ومساكنُهم خيرٌ منهم، فإذا حملَتْ مؤمنةٌ بكافرٍ كان جسدُها خيراً من رُوحه، إذ قام بروحه أخسُّ الصفات، وهو الكفرُ بربِّ الأرضين والسماوات.

فإن قيل: أين محلُّ الروحِ مِن الأجساد؟

قلنا: في كلِّ جسدٍ روحان:

أحدهما: «روح اليقظة»: وهي الروح التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان الإنسانُ مستيقظاً، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان، ورأتْ تلك الروح المنامات إذا فارقَتِ الجسد؛ فإن رأتها في السماوات صحَّتِ الرُّؤيا، إذ لا سبيلَ للشياطين إلى السماوات، وإن رأتها دون السماء، كانت مِن إلقاءِ الشياطين وتجريهم، فإن رجعَتْ هذه الروح إلى الجسد استيقظ الإنسان كما كان.

الروح الثانية: «روح الحياة»: وهي الروح التي أجرى الله العادة أنها إذا كانت في الجسد كان حيّاً، فإذا فارقته مات الجسد، فإن رجعت إليه حَييَ الجسد.

وهاتان الروحان في باطن الإنسان، لا يُعرف أين مقرهما إلا من أطلَعه الله على ذلك، فهما كجنِينَيْن في بطنِ امرأة واحدة.

وقد يكون في باطنِ الإنسان **روح ثالثة**: وهي «رُوحُ الشيطان»، ومقرُّها الصدر، بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٥].

وجاء في الحديث الصحيح: «إنَّ المتثائبَ إذا قال: هَاه هَاه، ضَحِكَ الشيطان في جوفه»[٢]. وجاء في الحديث: «إن للمَلَكِ لَمَّةً، وإنَّ للشيطان لَمَّةً».

---

(١) الشطر في «لسان العرب» [عصم].

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٢٢٣)، (٦٢٢٦)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٢) عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال بعض المتكلمين: الذي يظهر أن الروح بقرب القلب ولا يبعدُ عندي أن تكون الروح في القلب، ويجوز أن يحضرَ المَلَكُ في باطنِ الإنسان حيث يحلُّ الروحان، ويحضرُ الشيطان، ويجوز في كل واحدةٍ من هذه الأرواح أن يكون جوهراً فرداً، يقوم به ما يَلِيقُ به من الصفات الخَسِيسة والنفيسة، ويجوز أن تكون كل واحدة منهن جسماً حيّاً سميعاً بَصيراً عليماً قادراً مُريداً متكلماً، فيكون حيواناً كاملاً في داخل حيوان ناقصٍ حيّاً في بطنِ حيّ، سميعاً في بطن سميع، بصيراً في بطنِ بصير، عالِماً في بطن عالِم، قديراً في بطن قادر، مُريداً في بطن مُريد، متكلماً في بطن متكلِّم.

وقد أجرى الله العادة بأن الجسد إذا أبصرَ شيئاً أبصرَهُ رُوحُه، وإذا سمِعَ شيئاً سمعه روحه، وإذا أدرك شيئاً أدركه روحه.

ويجوز أن تكون الأرواح كلها نورانيّة لطيفة شفَّافة.

ويجوز أن يختصَّ ذلك بأرواحِ المؤمنين، والملائكة دون أرواحِ الجِنّ والشياطين.

ويدلُّ على أن الأرواح في الأجساد قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾ [الواقعة: ٨٣ـ٨٤].

ويدلُّ على وجود روح الحياة قوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقوله عليه السلام: «إنَّ الروحَ إذا خرجَتْ يَتْبعُها البَصَرُ»[1]، وقوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ [الواقعة: ٨٧].

وأجمع المفسرون على أن المراد بالمبالغة الحُلقوم التي ترجع إلى الجسد رُوح الإنسان.

وكذلك قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، تقديره: فَنَفَخْنا في جثَّتِها من رُوحِنا.

ويدل على وجود روح الحياة واليقظة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، تقديره: حين موتِ أجسادها، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، تقديره: ويتوفى الأنفسَ التي لم تمُتْ أجسادُها في نومها، ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفسَ ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ عنده، ولا يُرسلها إلى أجسادها، ﴿وَيُرْسِلُ﴾ الأنفس ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وهي أنفسُ اليقظة، إلى أجسادها ﴿إِلَىٰٓ﴾ انقضاء ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أجلُ الموت، فحينئذٍ تُقبضُ أرواحُ الحياة وأرواحُ اليقظة جميعاً من الأجساد، ولا تموتُ أرواحُ الحياة، بل تُرفعُ إلى السماء حيَّةً فتطرد أرواح الكافرين، ولا تُفتحُ لها أبواب السماء

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (٩٢٠)، وأحمد (٦/ ٢٩٧) عن أم سلمة مرفوعاً.

وتُفتح أبوابُ السماواتِ لأرواحِ المؤمنين إلى أن تُعرَضَ على ربِّ العالمين.

فيا لها من عرضة ما أشرفَها!.

وتكون الأرواح في القبورِ مجرَّدةً عن الأجساد، مُنعَّمةً بالثواب، أو معذَّبةً بالعقاب، إلى أن يُنفخَ في الصُّورِ النفخة الأولى فلا يجدُ المشركون مسَّ العذاب لأنهم راقدون إلى أن تبعثهم نفخةُ الصُّور، فيقولوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

ثم تردُّ الرُّوحان إلى الأجساد في القبور لمساءلةِ منكر ونكير، فإذا دنا البعثُ والنُّشور، تُوفِّيَتْ أرواحُ اليقظة فناموا مقدارَ أربعين عاماً، فإذا نُفِخَ في الصُّور عادت أرواحُ اليقظة إلى الأجساد فقال الكفار حينئذ: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] أي مَنْ أيقظنا من رُقادِنا، فقال لهم الملائكة أو المؤمنون: هذا البعثُ الذي وعَدَكُموه الرحمٰن وصَدَق المرسَلُون في إخبارِهم عن البعث والنُّشُور.

وقد اختلف العلماء في مقرِّ الأرواح في البرزخ، ما عدا أرواح الشهداء، فإن الله تعالى أسكنها في أجوافِ طير خُضرٍ تأكل تلك الطيور من ثمارِ الجنَّة وتشربُ من أنهارِها، وتأوي إلى قناديلَ معلَّقةٍ بالعرش(١).

فقالت طائفة: الأرواح بأفنيةِ القُبور ولذلك سلَّم رسول الله ﷺ عليهم، وأمر بالتسليم عليهم، وقال «سلامٌ على أهْلِ الدِّيَارِ مِنَ المُؤمنين والمُسْلمينَ»(٢).

وأهلُ الدار في عُرفِ الناس: مَن سكن الدار أو كان بفَناءِ الدار، وقد أمرَ بالاستعاذة من عذابِ القبر ومرَّ بقبرَيْن فقال: «إنهما ليُعذَّبَانِ وما يُعذَّبان فيَ كَبيرٍ»(٣)، وهذا يدلُّ على أن الأرواح في القبور دون أفنِيَتِها، وهو المختار.

لذلك قال عليه السلام في المؤمن: «ويُفْسَحُ له في قَبرهِ ويُمْلأ عليه خَضِراً إلى يوم يُبْعَثُون»(٤).

وقد قيل: إن الأنبياء تُرفعُ أجسادُهم، ولم يَثبُت ذلك. وزعَمت طائفة أن أرواح الكفار بِبَرَهُوت بئرٍ في اليمن. وظاهر السنة يرُدُّ عليهم فإنه عليه السلام أمر بالتعوّذ من عذابِ القبور، وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدَعَوْتُ الله أن يُسمعَكم من عذابِ الموتى في قبورهم»(٥). وأجسادُ المؤمنين على هيئة جسد آدم: ستون ذراعاً في السماء، فما

---

(١) إشارة إلى حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٨٧).

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم (٩٧٤) وأحمد في المسند (٦/ ٢٢١)، عن عائشة مرفوعاً.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (١٣٧٨) وأحمد في «المسند» (١/ ٢٢٥) عن ابن عباس مرفوعاً.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري في «صحيحه» (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٢٦).

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم (٢٨٦٨)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١١٤، ١٧٥)، عن أنس مرفوعاً.

الديارُ الديارُ ولا الخيامُ الخيام، وعلى الجملة فيا له من نبأ عظيم نحن عنه مُعرضون. وأسعدُ الناس مَن آثرَ مصالحَ آخرتِه على مصالح دنياه، فإنها خيرٌ وأبقى، وآثَرَ دفعَ مفاسد آخرتِه على دفع مفاسد دنياه لأنها شرٌّ وأبقى، ولا نِسبةَ لمفاسد الآخرة ومصالِحها إلى مفاسد الدنيا ومصالِحها، فمن آثرَ الأُولى على الآخِرة، في جلبِ المصالح ودرءِ المفاسد، فإنه خاسرٌ مغبون، فإنَّ مصالحَ الآخرةِ محضةٌ لا يَشُوبُها مفسدة، ومفاسدُها محضة لا يشُوبُها مصلحة. وأما الدنيا فقَلَّ أن تتجرَّدَ مصالحها عن مفاسدها وهي دارُ الأحزان، والهموم، والغُموم، وما بلغنا أن أحداً مِن العوالمِ يشقى في الآخِرة كشقاوةِ عُصاة الإنسِ والجنّ، ولا يسعدُ كسعادةِ مُؤمِني الإنسِ والجنّ؛ فلمثلِ هذه السعادة فليعمل العامِلُون، وفيها فليتنافس المتنافِسُون.

فإن قيل: إذا أتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام في صورة دِحْيَة، فأين تكون روحه: في الجسد الذي شُبِّه بجسدِ دِحْية؟ أم في الجسد الذي خُلق عليه ستمائة جَناح؟.

فإن كانت في الجسد الأعظم فما الذي أتى إلى الرسول؟ جبريل لا من جهة روحه ولا من جهة جسده، وإن كانت في الجسد المشبَّه بجسد دِحية فهل يموت الجسد الذي له ستمائة جناح كما تموتُ الأجسادُ إذا فارقتها الأرواح؟ أم يبقى حَيّاً خالياً من الرُّوحُ المنتقلة إلى الجسدِ المشبّه بجسدِ دِحية؟.

قلت: لا يبعدُ أن يكون انتقالها من الجسد الأول غيرَ مُوجبٍ لموتِه، لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجبٍ عقلاً، وإنما هو بعادةٍ مطّردة أجراها الله في أرواح بني آدم، فيبقى ذلك الجسدُ حيّاً لا ينقُصُ من معارفِه وطاعاته شيء، ويكون انتقالُ روحه إلى الجسد الثاني كانتقال أرواحِ الشهداء إلى أجوافِ الطُّيورِ الخضر، وانتقالُها إليها مُشبَّه بما يقوله أهلُ التناسخ.

فإن قيل: الإنسان لا يُثابُ على حُسنِ صُورته لأنها ليست من كسبه، ولا من حواسِّه، لأنها ليست من فعله، ولا على عقلِه، ولا على جِبِلاَّتِه الكريمة الداعية إلى الخُيور، وإلى اجتناب الشُّرور، إذ لا ثوابَ إلا على فعلٍ مكتَسبٍ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦]، وليست هذه الأوصاف من عمله، ولا يتعلق بها تكليفٌ، إذ لا قدرة له عليها، ولا سبيل له عليها، فهل يُثابُ الرسول على النّبوةِ والإرسال، أم لا؟.

قلنا: أما الإرسالُ، فهو مِنَ الصفات الشريفة التي لا ثوابَ عليها، وإنما الثوابُ على أداءِ الرسالة التي حملَها.

وأما النّبوة فقد اختلفَ العلماء فيها:

فمن جعل النبيَّ هو المُنبىءُ عنِ الله أُثيبَ على إنبائِه عنه لأنه من كسبِه.

ومن قال مذهبَ الأشعريّ وجعل النبيَّ هو الذي نبَّأه الله فلا ثوابَ له على إنباءِ الله إيّاه لتعذرِ اندراجِه في كسبه، وكم من صفةٍ شريفةٍ لا يُثابُ الإنسان عليها، كالمعارف الإلهامية أي: لا كسبَ له فيها، وكالنظر إلى وجه الله الكريم الذي هو أشرفُ الصفات، ولا ثوابَ عليه[1].

فإن قيل: أيُّهما أفضل: النُّبوةُ أمِ الإرسال؟

قلت: النُّبوة أفضل لأن النُّبوّة إخبارٌ عما يستحقه الربُّ سبحانه من صفاتِ الجلال، ونُعوتِ الكمال، وهي متعلِّقةٌ بالله من طرفَيْها، والإرسالُ دونها، أمرٌ بالإبلاغِ إلى العباد، فهو متعلق بالله من أحدِ طرفَيْه، وبالعبادِ من الطرفِ الآخر.

ولا شكَّ أنَّ ما تعلَّقَ بالله من طرفَيْه أفضلُ مما تعلق بالله من أحدِ طرفَيْه، والنُّبوة سابقةٌ على الإرسال، فإن قول الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠] مقدَّم على قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤]، فجميع ما تحدَّث به معه قبل قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ نبوّةٌ، وما أمَره بعد ذلك من التبليغِ فهو إرسال.

والحاصل أن النُّبوة راجعة إلى التعريفِ بالإله، وبما يجب للإله، والإرسالُ راجع إلى أمرِه الرسولَ بأن يبلّغ عنه إلى عباده أو إلى بعضِ عباده ما أوجبه عليهم من معرفته وطاعته واجتناب معصيَتِه، ولذلك رسول الله ﷺ قال له جبريل عليه السلام: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق:١] إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ كان هذا نبوّةً أمرَه بالقراءة، وعرَّفه بالرُّبوبية، وبأنه خَلَق كل شيء، وبأنه خلَق الإنسان من عَلَق، وبأنه الأكرمُ الذي علَّم الخطَّ بالقَلَم، وعلَّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم، وأنَّ رجوعَ العبادِ كُلِّهم إلى جزائه، فهذا كله نُبوّة.

وكان ابتداءُ الرسالة حين جاءه جبريل وقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ١-٢]، وكذلك موسى عليه السلام عرَّفه الرُّبوبية قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢]، وأمَرَهُ بخلع نعلَيْه ليقومَ بالأدبِ بين يدَيْه، وعرَّفه طهارة المكان الذي حلّ فيه، وأنه اختارَه لنبوّتِه ورسالته، وأمَره أن يستمع لما يُوحى إليه، ثم أوحى إليه قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤] وعرَّفه بأن الساعة آتية لتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما تَسْعى، كما أخبر محمداً ﷺ بذلك بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

(١) انظر كلام المصنف في «الشجرة» الفصل التاسع، بتحقيقنا، بيروت.

ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق:٨]، وكذلك ما ذكرَ بعده كله نبوّة إلى أن قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه:٢٤]، فهذا ابتداءُ رسالتهِ.

٣ ـ فائدة

ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ أحداً على أحد، ولا أن يسوِّي أحداً بأحدٍ حتى يقفَ على أوصافِ التفضيل أو التساوي. فمن لا يعرفُ ما اشتمَلَته عليه أرواحُ الأنبياء، وأرواحُ الملائكة، من المعارفِ والأحوال، لا يجوز له أن يتعرَّض لشيء من التفضيلِ والمساواة إلاَّ بِمَدْرك شرعي، ولا يُقْدِمُ على ذلك إلا هَجومٌ لا يتَّقي الله، ولا يخشى التصمُّخ بها والكذب. وقد جاء في التنزيل ما يدل على تفضيلِ البشر على الملائكة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة:٧]، «والبريّة»: الخليقة الذين من جملتِهمُ الملائكة.

وكذلك ذكَر جماعةً من الأنبياء في سورة الأنعام فقال فيهم: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦]، والملائكةُ من جملةِ العالَمين، لأنك إن اشتقَّيْتَ العالِمَ من العِلْم، فالملائكةُ من العُلَماء، وإن أخذتَه من العَلامة اندرج فيه الملائكة وكلُّ موجودٍ سوى الله، لأن في كلِّ منهم علامةً تدلُّ على قدرةِ الصانع وإرادتِه وعلمهِ وحياتهِ وحِكْمتهِ.

٤ ـ فائدة

إذا استوى اثنان في حالٍ من الأحوال فهما في الفضل سِيّان، فإنْ تفاوتا في ذلك بطولِ الزمان وقِصَرِه، كان مَنْ طالَ زمانُه أفضلَ ممَّن قصُرَ زمانُه عند اتحادِ الحال.

وإن تفاوتا في الأحوال: فإنْ كانت إحدى الحالَيْن أشرفَ وأطولَ زماناً، فلا شكَّ أنَّ صاحبها أشرفُ وأفضل.

مثاله: الخائف مع الهائِب، فإنَّ الهَيْبَةَ أفضلُ من الخوف، فإذا طال زمانُ الهَيْبةِ وقصُرَ زمانُ الخوفِ فقد فضلَتْه من وجهَينْ اثنين، فإن استوى الزمانُ كان الهائبُ أفضل، وكذلك إن قصُرَ زمانُ الهيبة، وطال زمنُ الخوف، كانت الهيبةُ أفضلَ؛ لعلُوّ رتبتِها وشرفِها، ألا ترى أنَّ وزنَ دينارٍ من الجوهرِ أفضلُ من الدينارِ، والدينارُ أفضل من الدرهمَيْن والعشرة، لشرفِ وصفهِ على وصفِ الفِضَّة، والدرهمُ أفضل من مئة درهمٍ من النُّحاس لشرفِ وصفهِ.

وبهذا الميزان يُعرفُ تفاوتُ الرجال، فيُعرفُ الخائفُ بظهورِ آثارِ الخوف عليه،

كما يُعرف الهائبُ بظهورِ آثارِ المهابة عليه[١].

وكذلك القول في المحبّة والرِّضا، والتوكُّل والرَّجاء، وسائر الأحوال.

فإذا ظهرت آثارُ الهَيْبة على إنسان، وآثارُ الخوفِ أو الرَّجاء على آخَر، عَلِمنا أنَّ من ظَهَرتْ عليه آثارُ الهيبةِ أفضلُ مِن صاحبِهِ.

وكذلك إذا ظهرت على أحدِ رجلَيْن آثارُ محبّةِ الإنعامِ والإفضال، وظهرَتْ على آخرَ آثارُ محبة الجلالِ والجمال، فصاحبُ المحبة المبنيَّةِ على معرفةِ الجلال والجمال أفضلُ من صاحب محبّةِ الإنعام والإفضال؛ لتعلُّقِ محبّةِ الجلال والجمال بذاتِ الله وصفاته، ولتعلُّق محبّةِ الإنعام والإفضال بغير الله؛ وبمثل هذا الأسلوب تُعرفُ مراتبُ الرجال.

وكذلك تُعرف مراتبُ الطّائعين بملابسةِ بعضهم لأفضلِ الطاعات، وبملابسة الآخرين لأدنى الطاعات.

وإن استووا في الطاعات لم يَجُزِ التفضيلُ في بابِ الطاعات.

وإن كثرتْ طاعاتُ أحدِهم، وقَلَّت معارفُ الآخَر وأحوالُه، قُدّم شرفُ المعارف والأحوال على شرفِ الأعمالِ والأقوال، ولهذا جاء في الحديث: «ما سَبَقَكُم أبو بكرٍ بكثرةِ صَومٍ ولا صلاة ولكن بأمرٍ وقَر في صدرِه»[٢].

وقال عليه السلام لما استنقص بعضهم طاعاتِه: «إني لأرجُو أن أكون أعْلَمَكُمْ بالله، وأشَدَّكُمْ له خَشْيَةً». ففضَّلَ المعرفةَ وشدّةَ الخشيةِ على كثرةِ الأعمال[٣].

٥ ـ صفةُ أحوالِ الناس في البرزخ على الإجمال

ما من بَرٍّ ولا فاجر، ومؤمنٍ وكافر، إلاَّ ينظرُ في البرزخِ إلى منزلِه بكرةً وعَشيَّة؛ إنْ كان من أهلِ النار فمن أهل النار، وإن كان من أهلِ الجنّة فمن أهلِ الجنة. ثم نَعيمُ البرزخ المخصوص به مبنيٌّ على شرفِ الأعمال وكثرتِها، وعذابُ البرزخِ المخصوصُ به مبنيٌّ على الإساءاتِ وكثرتِها.

والمنازلُ أربع:

إحداها: في بُطونِ الأمَّهات.

---

(١) انظر شجرة المعارف للعز ـ الفصل الثامن والعاشر ـ بتحقيقنا، ط بيروت.

(٢) أورده البخاري في «المقاصد» (٩٧٠) وعزاه للحكيم في «نوادره» عن بكر بن عبد الله المزني.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٦١٠١)، (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة مرفوعاً.

والثانية: في الدنيا.

والثالثة: في البرزخ إلى جَمْعِ الرُّفاتِ وبعثِ الأموات.

والرابعة: في دار القَرارِ ولا غاية لآخِرِها. بل أهلُ الجَنة في خُلودٍ في النَّعيم بلا موت، وأهلُ النارِ في خُلودٍ في الجحيم بلا موت.

٦ ـ صفةُ لذّاتِ الجنَّة وأفراحِها على الإجمال

الجَنة مملوءةٌ بالأفراح وأسبابها، واللذّاتِ وأسبابها؛ خليَّةٌ من الغُموم والآلام وأسبابِها. وأفراحُها أفضلُ الأفراح، ولذّاتُها أفضلُ اللذّات.

وأفضلُ لذّةٍ رِضا الرّبّ، والنظرُ إليه، وسماع كلامه وسلامِهِ، والأنسُ بقربِهِ وجوارهِ؛ فإنه ينشأُ عنها من الأفراحِ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطَر على قلبِ بَشر.

ولذّات المعارفِ في الآخرة أفضلُ من لذاتها في الدنيا.

وكذلك الأحوالُ الناشئةُ عن المعارفِ في الآخرة أفضلُ من نظيرِها في الدنيا، لأنها أكملُ وأفضلُ، وخيرٌ وأبقى.

ولا ينقطعُ من الأحوال في الآخِرة إلاّ الخوفُ لأنه مُؤلم. وما مَنَّ الله بالخوفِ في الدنيا على عبادهِ إلاّ لكونه زاجِراً لهم عن معصيتهِ ومخالفتِه، وكذلك لِيَسقُطَ الأمرُ به عند حُضورِ الموت، وكذلك لذَّاتُ مآكِلها ومشاربِها وملابِسها ومناكِحها ومساكِنها ومراكِبها أفضلُ مِن لذَّاتِ نظائِرها في الدنيا، وهي دون لذّات المعارف.

٧ ـ صفةُ غُمومِ النارِ وآلامِها على الإجمال

النارُ مشحونةٌ بالغُموم وأسبابِها، والآلام وأسبابها، وأشدُّها ألَمُ السَّخَط والغضبِ والطَّرد والإبعاد، وسماع قولِه: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

فمِن آلامِها ألَمُ أكلِ الضَّريع والزَّقُّوم، وشربِ الصَّديد والحَميم والغساق، والسَّلاسل والأغلال، والذّلّ والهوان، والخِزي والافتضاح، وهي خاليةٌ من جميع اللذاتِ والأفراح.

٨ ـ صفةُ ما في الدنيا مِن اللذّاتِ والأفراح والغُموم والآلام على الإجمال

الدُّنيا مشحونةٌ بالمصالح وأسبابِها، والمفاسدِ وأسبابها، وشرُّها أكثرُ من خيرِها، ومضارُّها أكثرُ من منافعها، وقبائحُها أكثرُ من محاسِنها. ومعظمُ مقاصدِ الخَلْق في

جلبِ اللذّاتِ والأفراح، وانتفاءِ الغُمومِ والآلام. فأفضلُهم مَن كانت مقاصدُه في أفراحِ المعارفِ والأحوال ولذّاتهما، ويليه مَن كانت أقلُّ مقاصدِه في لذّاتِ الدنيا وأفراحِها، ومعظمُ مقاصدِ لذّاتِ الآخِرة وأفراحِها، ويليه مَنْ توسَّط في مقصودَيّ الدنيا والآخِرة، ويليه مَن غلبَ عليه قصدُ لَذّاتِ الدنيا وأفراحِها، وأشقى منه مَن لا يخطرُ له لذّاتُ الآخِرة وأفراحُها ببالٍ حتى يسعى لها.

والجَنَّةُ والنار دارَا بقاءٍ وقَرار، والدنيا دارُ زوالٍ وانتقال، فَوَيْلٌ لمن باع النفيسَ الباقي بالخسيس الفاني، فيا لها من صفقةٍ خاسِرة، وتجارةٍ بائرة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، إذ لا مُشقي لِمَنْ أسعدَه، ولا مُسعِدَ لِمَنْ أشقاه، ولا مُقصيَ لِمَنْ قَرّبه، ولا مُقَرِّبَ لِمَنْ أقصاه.

٩ ـ فصل في السَّعادات

سعادةُ الدنيا والآخِرة بالطاعات، وشقاوتُهما بالمعاصي والمخالفات، فَمِن الناس السعيدُ والأسعد، والشَّقِيُّ والأشقى، وهم أربعة:

سعيدٌ في الدنيا والآخِرة، وشقيٌّ في الدنيا والآخِرة، وشقيٌّ في الآخرة سعيدٌ في الدنيا، وشقيٌّ في الدنيا سعيدٌ في الآخرة.

والسعادة كلها بالمعارفِ والأحوال، والتمسُّكِ بكتابِ الله وسُنّةِ رسولِه في كلِّ حال.

١٠ ـ فصل في أسباب الفضائل[1]

الفضائلُ بالإسلام، والإيمان، والتَّقوى، والمعارف، والأحوال، والأُبُوّة، والحرِّية، والأمانة، والرُّوحيّة، والأخلاق السَّنِيّة، والرِّسالة، والنُّبُوّة، وحُسن الآداب، والتلبّس بأخلاقِ القرآنِ؛ كالْعفو، والغَفْر، والصَّفح، والصّبر، والحِلْم، والكظم.

ولا فضلَ في الدنيا ومتاعِها، وزهرتِها وجَاهِها، وكثرةِ أموالها وأحشادِها لأنها فِتَنٌ وأسبابُ فِتَن.

١١ ـ فصل

تفضَّل الله بنعيمِ الجِنان على غيرِ عملٍ مكتَسَب، كما تفضَّل على الحُور العِين

(١) أورد المصنف فصلاً كاملاً في أسباب الفضائل من كتابه «شجرة المعارف والأحوال» بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

المخلوقات في الجنان، وكما يتفضَّلُ على الذين ينشئُهم في الجَنّة، ويسكنُهم في قصورِها من غير إثابة على عملٍ سابق، وكما يتفضَّلُ بثوابِ الشهادة على المبطونِ والغريق والحريق والمرأةِ تموتُ بجُمْع، ولا كسبَ لهم في ذلك، وكما يتفضَّلُ في الدنيا على بعضِ عبادِه بكمال العُقول، وبحُسنِ الصُّورِ والأخلاق، والسَّجايا والقُوى والحَوَاس.

وقد يعذِّبُ أقواماً في الدنيا والآخرة من غير جُرمٍ سابقٍ، كقبحِ الصُّورة وسَخافةِ العُقول، وضَعْفِ القُوى والحَواس، وملازمةِ الأوصابِ والأسقام، والغُموم والآلام. كما ينشيء في النار قوماً يعذِّبُها بها مِن غيرِ كفرٍ متقدِّم، ولا عِصيانٍ سابق، ألا لَهُ الخَلْقُ والأمرُ، لا يُسألُ عمّا يفعلُ في خلقه من إشقاءٍ وإسعاد، وتقريبٍ وإبعاد، وهم يُسألون عمّا كانوا يفعلون. فسبحان مَن لا مُتَّكَلَ إلاّ عليه، ولا منجا منه إلاّ إليه.

١٢ ـ فصل في الإحسان القاصرِ على فاعِليه

كلُّ مَن أطاع الله بفعلِ واجبٍ أو مندوبٍ، أو تَرْكِ محرَّمٍ أو مكروه، فهو محسِنٌ على نفسِه بتعريضِها للثواب، قائمٌ بحقِّها وبحقِّ ربِّه في طاعتِه. ويختلف أجرُه باختلافِ مصالحِ ما قام به من ذلك المأمور، بدليل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وكذلك يختلفُ أجرُه باختلاف مفاسدِ ما اجتنَبه من ذلك المنهي. ومن أتى مباحاً فهو محسِنٌ إلى نفسهِ، غيرُ مُطِيعٍ ولا مثاب، لأنّ المباحَ غيرُ مأمور.

١٣ ـ فصل في الإحسان المتعدي

مَن فعَل واجباً متعدياً أو مندوباً متعدّياً، واجتنَب محرَّماً أو مكروهاً متعدِّيَيْن، فقد قام بحقّ نفسهِ، وحقِّ ربِّه، وحقِّ مَن تعدَّى إليه ذلك. والكتابُ مشحونٌ في الترغيبِ في هذا النوع.

١٤ ـ فائدة

كلُّ مطيع لله محسنٌ إلى نفسهِ، فإنْ كان إحسانُه متعدّياً إلى غيره تعدَّد أجرُه بتعدُّد مَن تعلَّقَ به إحسانُه، وكان أجره على ذلك مختلفاً باختلافِ ما نُسب إليه من جلبِ المصالح ودرءِ المفاسد. فإن كان إماماً فهو محسِنٌ إلى نفسه وإلى كلِّ مَن تعلَّق به إحسانُه من رعيّته وأعوانِه وأنصارِه وَوُلاتِه وقضاته.

وإن كان حاكِماً فهو محسِنٌ إلى نفسهِ بطاعةِ ربِّهِ، وإلى المدَّعي إنْ كانت له حجةٌ فقد نصرَه بإيصال حقِّه إليه، وإلى المدَّعى عليه ظالماً بتخليص خصمهِ مِن ظلمهِ، والمدَّعي مظلوماً. وإن كان الأمرُ بالعكسِ فقد نصرَ المدَّعى عليه مظلوماً والمدَّعي ظالماً.

وإن كان شاهِداً فهو محسِنٌ إلى نفسِه، وإلى الخصمَيْن بالتحمّلِ والأداء لأنه متسبِّبٌ إلى نصرِ الظالم والمظلوم.

وإن كان مفتياً فهو محسنٌ إلى نفسه، وإلى المستفتي والمستفتى عليه.

١٥ ـ فائدة

لقد فتح الله سبحانه وتعالى على عبادِه أبواباً كثيرة إلى الجِنان حتى إنه لَيُثيبُهم بفِرْسِن[1] شاة، وبشقّ تمرة، وكلمةٍ طيّبة، وبمجرد المقصود والنّيات، فمَنْ أصبح عازماً على الإحسان على حسَبِ الإمكان، فإنه يؤجَرُ على قُصودِه، وإن لم يقعْ مقصوده. وتختلفُ أجورُ قصودهِ باختلافِ رتبِ مقصوده؛ فمَنْ تصدَّى للحُكمِ بالعدل، والقضايا بالقِسط، أُثيبَ ثوابَينْ: أحدهما على قصدهِ، والثاني: على تصدّيه، وإنْ لم يتحاكَمْ إليه أحد. وإنْ تحاكم إليه خُصومٌ أُثيبَ على كلّ حكومةٍ بعشرِ حَسَنات، تختلفُ رتبُها باختلافِ رتبِ المحكومِ به، مِن جلبِ المصالِح ودرءِ المفاسد.

ومن تصدَّى للفُتيا أُثيبَ ثوابَيْن: أحدهما: على قصده، والثاني: على تصدّيه، وإن لم يُسْتَفْتَ في شيءٍ، وإن استفتي فأُجيبَ، أُثيبَ على كل جواب بعشرِ حسنات، تختلفُ رتبُها باختلافِ رتبِ مصالحِ تلك الأجوبة.

وكذلك تصدِّي الإمام الأعظم للقيام بمصالح المسلمين، وكذلك التصدّي لجلبِ كل مصلحةٍ مأمورٍ بها، ودرءِ كلِّ مفسدةٍ منهيٍّ عنها.

وإن كان الأمر كذلك فلن يُهلَكَ عند الله إلاّ هالك.

فإن قيل: لو رجحَتْ إحدى المصلحتين على الأخرى بمثقال ذرّة، وتعذَّر الجمعُ في الجلبِ والدفعِ فهل يقدَّمُ الأصلحُ ويُدرءُ الأفسد؟.

قلنا: نعم؛ لأن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

(١) هو عظم قليلُ اللحم. وهو حافر البعير.

١٦ ـ فصل في الإساءةِ القاصِرة على المُسيء[١]

من ارتكب مُحرَّماً أو مكروهاً، أو منع واجباً فهو مسيءٌ إلى نفسه، مضيِّعٌ لحقِّ ربِّه، وحقِّ نفسه، بدليل قوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: ١١١].

١٧ ـ فصل في الإساءة المتعدِّية

مَن عصى الله معصيةً تتعلَّقُ بغيره فهو مسيءٌ إلى نفسِه، ظالمٌ لها، مضيِّعٌ لحقِّها، وحقِّ ربِّه مِن طاعتِه، وحقِّ مَن تعلَّقَتْ به معصيتُه من الناسِ والبهائمِ والحيوانِ المحتَرم.

فوائد متفرقة

١٨ ـ فائدة

إن قيل: لو قتل عدوُّ الإنسان ظلماً وتعدِّياً فَسَرَّهُ قَتْلُه، وفرِح به هل يكون ذلك سروراً بمعصية الله أم لا؟.

قلت: إن فرِح بكونه عصَى الله فيه فبئس الفرحُ فرحُه، وإن فرِح بكونه خَلَص من شرِّه، وخَلَص الناس من ظلمه وغشمه، ولم يفرح بمعصية الله بقتله، فلا بأس بذلك، لاختلاف سببَيّ الفرح.

فإن قال: لا أدري بأيِّ الأمرَيْن كان فرحي؟

قلنا: لا إثمَ عليك، لأنَّ الظاهرَ من حالِ الإنسان أنه يفرحُ بمصَابُ عدوِّهِ لأجلِ الاستراحةِ منه والشَّماتةِ به لأجلِ المعصية، ولذلك يتحقق فرحُه وإن كانت المصيبةُ سماويَّةً.

فإن قيل: إذا سُرَّ العاصي في حالِ ملابسةِ المعصيةِ فهل يأثمُ لسروره أم لا؟.

قلت: إذا سُرّ العاصي بها من جهة أنها معصيةٌ أثمَ بذلك، وإن سُرَّ بها من جهة كونها لذَّةً ـ مع قطعِ النظر عن كونها معصيةً ـ فلا إثمَ عليه في سروره، والإثمُ مختصٌّ بملابسةِ المعصية، والله عز وجل أعلم.

---

(١) انظر: فصل في الإساءة القاصرة، وكذلك الإساءة القولية والفعلية من كلام المصنف، مفصلاً عن هنا ـ في شجرة المعارف والأحوال ـ بتحقيقنا، ط. بيروت.

١٩ ـ فائدة

احترامُ المصاحفِ أنواعٌ: أفضلُها العملُ بما فيها.

الثاني: إبعادُها من النَّجاسات.

الثالث: إبعادُها مِن المستقذرات كالمُخاطِ والبُصاق.

الرابع: إبعادُها من مَسِّ المُحدِثين، ثم المُجنبين، ثم الحُيَّض، ثم حَمْلُها منفردة، ثم حملُها مع الأمتعة.

وأما القيام للمصاحفِ فبدعةٌ لم تُعهد في الصَّدرِ الأول، وإنما بيَّنتُ هذه الحُرم إجلالاً لربِّ العالمين وتعظيماً لكتابِه أن يسوَّى بينه وبين كُتبِ غيره.

وأما حرمةُ المساجد فبأنْ تُصانَ من النَّجاسات، والمُخاط، والبُصاق، وإقامةِ الحُيّض والمُجنِبين، والبيعِ والشراء، ورفعِ الأصوات، وإنشاد الضَّوالّ، والتصوّن من دخولِ الصِّبيان والمجانين، ومن اتخاذِها مجالسَ للوُلاة والحُكّام على الاستمرار والدوام، لأن أحدَ الخصمَيْن كاذبٌ في الغالب، مبطِلٌ، فَتُصان عن إيقاعِ الباطلِ فيها، وأن لا يُفعلَ فيها إلا ما بُنِيَتْ له، وهي الصلاةُ فقط، والقراءةُ تبعاً لها[1].

وحرمةُ المسجدِ الأقصى آكدُ من غيره: لقدمه، ولشدّ الرّحالِ إليه، وكثرةِ مَن طَرَقَه مِن الأنبياء والأولياء والصالحين.

ومسجدُ المدينة أفضلُ منه.

والمسجدُ الحرام أفضلُ مِن مسجدِ المدينة لما اختصّ به من الفضائل والأحكام.

وإنما بَيَّنْتُ حرمةَ المساجد تمييزاً لبيوتِ الله عن بيوت الناس إجلالاً وتعظيماً له.

٢٠ ـ فائدة

أوقاتُ الصلوات مرتّبةٌ بحركاتِ الشمسِ وانتهائها في أماكن مخصوصة، ويُعرف انتهاؤها إلى تلك الأماكن بالأمارات الدالة على انتهائها إليها؛ فاستواؤها سببٌ لكراهةِ النوافل، وزوالُها سببٌ لوجوبِ الظُّهر، وانتهاؤها إلى حدٍّ يصيرُ ظِلُّ الشخصِ فيه مثلُه

(١) قال المصنف: فصل في احترام المساجد «قال ﷺ لمن أنشد ضالته في المسجد: «أيها الناشد غيرك الواجد»، ويروى أنه قال: «لا ردَّ الله عليك»، وقال في تنظيف المسجد: قال تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[الحج:٢٦]، ورأى النبي ﷺ نخامة في قبلة المسجد، فحكها بعرجون في يده، ووضع في مكانها خلوقاً، وقال: «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»، وانظر: شجرة الأحوال والمعارف، بتحقيقنا، بيروت.

سبب لصلاة العصر وتوابعها، وانتهاؤها إلى الاصفرارِ سببٌ لكراهةِ الصلاة، وانتهاؤها إلى الغروب سبب لصلاة المغربِ وتوابِعها، وانتهاؤها إلى حدٍّ يَغيبُ فيه الشَّفقُ سببٌ لصلاةِ العشاء وتوابعها، وانتهاؤها إلى الثلث الأخير سببٌ لإعطاءِ السائلين وإجابة الدَّاعِين وحطِّ ذُنوبِ المستغفِرين، وانتهاؤها إلى حدٍّ يظهرُ فيه الفجر سبب لصلاة الفجر وتوابعها وانتهاؤه إلى حدٍّ تطلع فيه سبب لكراهة التنفُّل، وانتهاؤها في الارتفاعِ إلى قيدِ رمحٍ سببٌ لصلاة الضُّحى وجوازِ التنفُّل.

ولم تُشرع الفرائضُ في جوف الليل لما فيه مِن المشاقِّ، وشَرع التنفُّلَ لئلا تفوتَ القُرُباتُ على مَن أرادها.

وأطولُ الأوقاتِ وقتُ العِشاء، وأقصرُها وقتُ المغرب، والأصح أنه موسَّعٌ إلى مغيبِ الشَّفق، ولم أقف في طولِ الأوقات وقصرها على شيء أعتمده، وإنما فُرِّقَتِ الصلواتُ على الأوقات، ولم تُجمع في وقتٍ واحدٍ لما في ذلك من المشقّة والسأمة، ولأنَّ الخُشوعَ والخُضوعَ لا يطُولُ زمنُهما في الغالبِ ويُعرفانِ مع طولِ الزمان بحيث يعسرُ ردُّهما إلا باستحضارِ شافٍ. فَوُزِّعَتِ الصلوات على الأوقات لذلك، وقُرِّبَ بعضُها من بعض لأنه لو طال أمدُها لنسيَ الإنسانُ ربَّه، وأطال عهده بذكرِه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤] أي لتذكرني، والله ذاكرٌ من ذكَرَهُ، وشاكرٌ من شَكَرَه، والصلاةُ مشتمِلةٌ على ذكرِه، وأفضلِ شُكرِه، فإنَّ شكرَه بطاعتِه، واجتنابِ معصيته، وشكرُه إيّانا بمثوبته وكرامته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] أي شاكرٌ لتطوّعِهِ بالمثوبة، عالمٌ بتطوّعِهِ في قلّتِهِ وكثرتِهِ، فهو يشكُره على قدرِ فضلِ طاعته وقلّتِها وكثرتِها.

ولم أقف على معنى كراهة الصلاة في الأوقات الخمس، ولا على معنى التعليل بطلوعها بين قرنَيّ الشيطان، ومقارنته إيّاها عند الاستواء والتنصيف والغروب. وقد عُلِّل ذلك بأن عُبَّادَها يصلُّون لها في هذه الأوقات، وهذا لا يصحُّ؛ فإنَّ تعظيمَ الله في الأوقات التي يُسجدُ فيها لغيره أولى لما فيه من إرغام أعدائه.

ولستُ أتكلَّفُ الكلام فيما لا أعلمُه، ولا الجوابَ بما لا أفهمه، وأرجو أن يُطلعني الله على مرادِ رسول الله ﷺ في ذلك، ثم لو صح هذا التعليل فأيُّ فرق بين صلاة لها سببٌ أو لا سبب لها، والموفَّقُ من رأى المُشكِلَ مشكِلاً، والواضِحَ واضحاً، ومن تكلَّفَ خلافَ ذلك لم يخلُ من جهلٍ أو كذب.

فإن كانتِ الشمسُ حيواناً مطيعاً لربِّه، كما زعَم بعضُ الناس! فقد أمَرنا بموافقته في طاعته عند هذه الحرمات، فإنَّ الاقتداءَ في الخيراتِ مشروع.

٢١ ـ فائدة

أموالُ أهلِ الحرب أقسام:

إحداها: ما يؤخذُ بالسَّرِقة، فيختصُّ به آخذُه، كما يختصُّ بتملُّكِ المباحِ، ولا خُمسَ فيه.

القسم الثاني: ما يؤخذُ بالمعاملات، فيجبُ أداءُ أعواضِه إليهم؛ إذ لا يجوز خيانتُهم في ودائعهم وأماناتِهم، ولا في شيء من معاملاتِهم، فإنَّ الله لا يحبُّ الخائنين.

القسم الثالث: الأسلابُ التي يستحقُّها المقاتِلون، ولا خُمس فيها، وإنما جُعلت للقاتلين لأنهم كفوا مؤنة مَن قتلوه مِن الكافرين؛ وكذلك لو قَطع أحدُهم يدَيّ الكافر ورجلَيْه لاستحقّ سلبَه لأنه دفعَ شرَّه، بقطعِ أطرافهِ فأشبَه دفعُه بقتلِه.

القسم الرابع: الفيء المأخوذ من غير إيجاف خيل ولا رِكاب، وقد كان لرسول الله ﷺ في حياته لقوة إرعابه المشركين، فإن الرعب كان يسيرُ بين يديه مسيرة شهر، وأما بعد موته فالأصح أنه يخمّس، وفي أربعة أخماسه قولان:

أحدهما: أنه لأجناد المسلمين، لأنهم قاموا مقامَه في إرعاب الكافرين.

والثاني: لمصالح المسلمين، لأنها أعمُّ وأنفع. ولم يقم إرعابه الأجناد مقام إرعاب الرسول في قوته، ومسيره بين يديه مسيرة شهر، وعلى قول: تُصرف جملة الفيء إلى مصارف خمس الغنائم، وهو ظاهر القرآن.

القسم الخامس: الغنائم المأخوذة بإيجاف الخيل، والرِّكاب، وتكثير السواد وهي مخمَّسة بنص الكتاب، ولا يخفى ما في تخميسها من المصالح. وأما أربعة أخماسها فللغانمين، لأنهم نُسبوا إليها بإيجاف الخيل، والركاب، وبتكثير السواد، وكان سهم رسول الله ﷺ من أربعة الأخماس مثل سهم الفارس وهو ثلاثة أسهم مضموماً إلى سهمه من خُمسِ الخُمس.

فإن قيل: لِمَ سوَّى بين الفرسان في السهمين مع تفاوتهم في النِّكاية؟.

قلنا: لما تعذر ضبط ما يفعله كل واحد منهم، تعذر ألا يمكن دفعه، سوَّينا بين من عظُمت نكايَتُهُ، وبين من خفّت نكايته، كما سوينا بين مكثِّري السواد، وبين المقاتلين، وكذلك التسوية بين الرِّجالة مع التفاوت في القتال والنِّكاية.

٢٢ ـ فائدة

الغلبة مفسدة شاقة على المغلوب، عامة مؤلمة له، سارّة للغالب، مشمّتة له بالمغلوب، مخجِّلة له، ويجوز ذلك، بل يجب، في غلبة الكفرة، وعليه كل من يجب قتاله جائزة، وفي حق من يجوز قتاله لرجحان مصلحة الغلبة.

والغلبة في القِمار محرّمة لما ذكرنا، فإن أُخذ فيها المال تضاعفت العداوة والحقد من المغلوب، والشماتة من الغالب، وحَرُمَ، ويبقى المال المقصور به في ذمّة القاصر.

والغلبة في السباق والنضال جائزة، لأن ذلك من أسباب القتال فيُحمل لرجحان مصالح القتال مفاسدَه، مع أن الغالب فيه يفوز ببشاشة القلب وبالسبق، ويختص المغلوب بمعرَّة الغُلب وغبنِ أحد السّبق.

والشطرنج موجبٌ لمضار الغالب على المغلوب، مشمِّتٌ بخصمه، فإن انضم إليه أخذُ العِوَضِ حرُمَ لتضاعف المفاسد، وإن لم ينضم إليه أخذ مالٍ فقد اختلف العلماء فيه.

والنّردُ محرَّم بالعِوَضِ لما ذكرناه، وكذلك بغير عوض على الأصح، ولم أقف على صفته حتى أعرف علّته فأفرق بين مفاسده وبين مفاسد الشطرنج.

ومن غلب في الجدل بالباطل مع علمه بالحق أثم لجدله، وإفحام خصمه.

ولا يجوز إيراد الإشكالات القوية بمحضر من العامّة، لأنه سبب إلى إضلالهم وتشكيكهم، وكذلك لا يُتفوَّه بالعلوم الدقيقة عند من يقصرُ فهمه عنها فيؤدّي ذلك إلى ضلالته، وما كلُّ سرٍّ يذاع، ولا كل خبرٍ يُشاع.

٢٣ ـ فائدة

إن قيل: كيف تجمعون بين قوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق»[1]، وبين قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾[الزلزلة:٧]، فالجواب من وجهين:

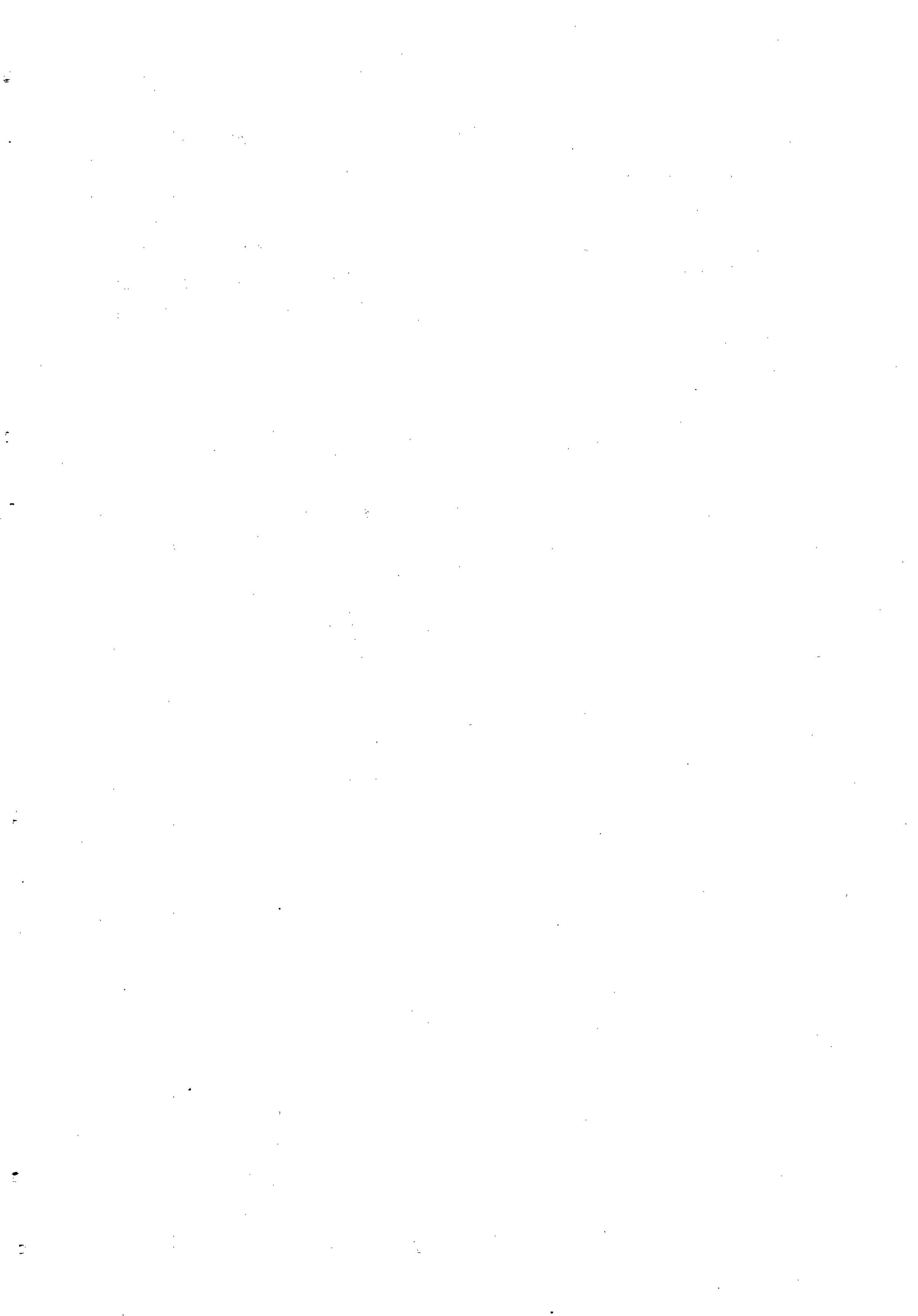
أحدهما: أن هذا من دفع المفاسد، ومثقال الذّرة من جلبِ المصالح.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، بنحوه عن أبي هريرة مرفوعاً.

والثاني: وهو أولى، أن رُتَبَ شعب الإيمان المجازي ينتهي بإماطة الأذى عن الطريق، لأن شُعَب الإيمان أفضل من غيرها من أنواع الإحسان؛ فإنّا نعلم أن مُمِيطَ الأذى عن الطريق محسِنٌ إلى كل مجتاز بالطريق، وهذا من الفعل الواحد الذي يتضاعف أجرُه بتضاعف أنفعه، كالمؤذِّن والخطيب يتضاعف أجرُهما بتضاعف أعداد سامعيهما، وكذلك أمر الجماعة بمعروف واحد بلفظ واحد، ونهي الجماعة عن منكر واحد بلفظ واحد، وكذلك التبشير والإنذار.

نجزت بحمد الله وعونه على يد فقير عفو ربّه
عبد الله بن علي بن عبد الرحيم
اللهم اغفر له ولوالديه ولمالِكها ولمن نظر فيها
ودعا لهم بالمغفرة والموت على الإسلام، وللمسلمين أجمعين
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
حسبنا الله ونعم الوكيل



الفِتَن والبلايا والمِحَن والرّزايا

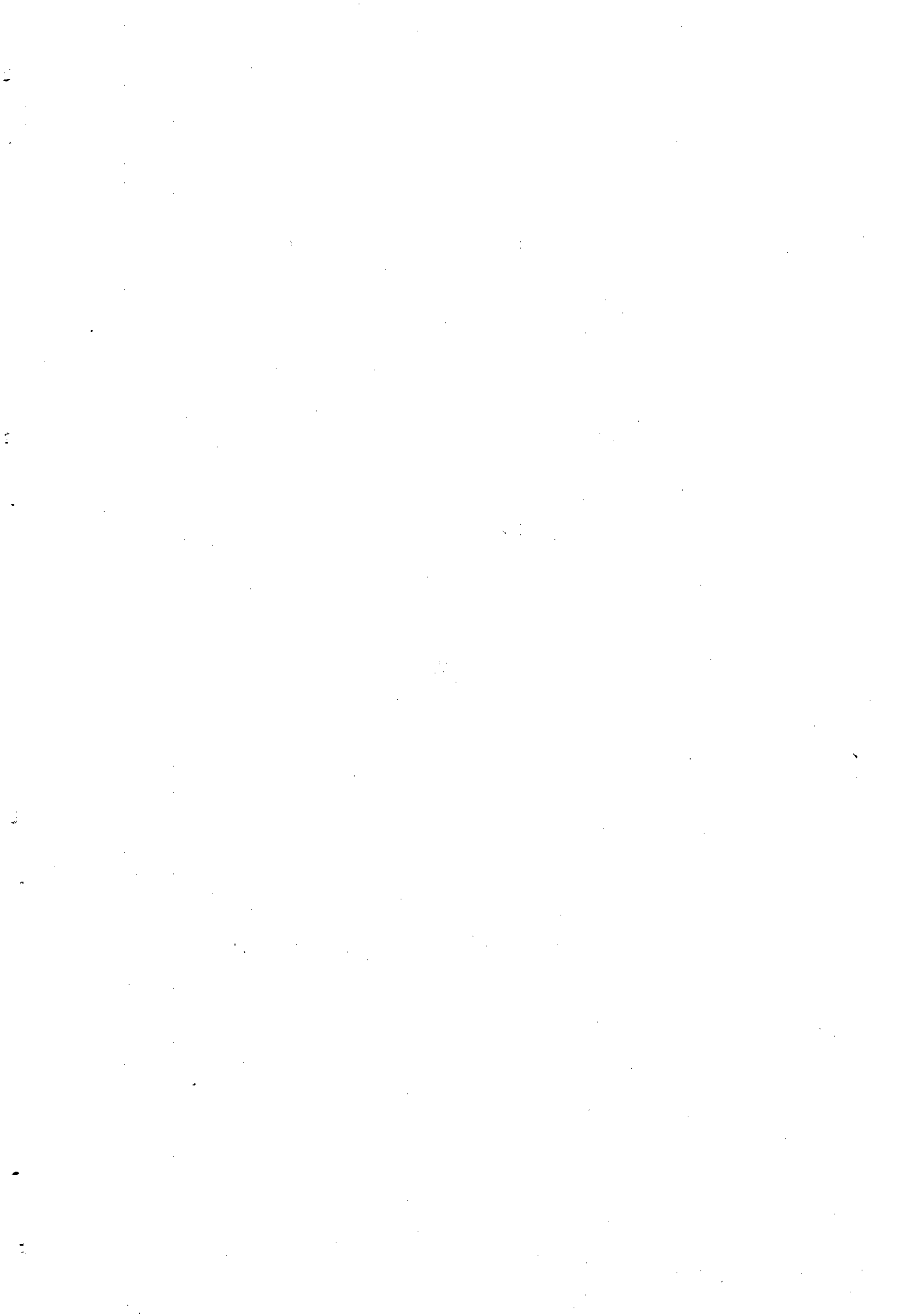
تأليف

سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي

المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل   أحمد فريد المزيدي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صل على سيدنا محمدٍ النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ـ٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وإن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعةٍ، وكل بدعةٍ ضلالةٍ.

وبعد، فإنه يسعدني أن أقدم هذا السفر الرائع من روائع سلطان العلماء «الفتن والبلايا والمحن والرزايا «أو» فوائد البلوى والمحن». ذكر فيهما درراً ونبذاً فوائد، ترف لها القلوب، وتتعظ له النفوس، حتى يرضى العبد بقضاء الله وقدره، ويفعل ما أمره الله به ليفوز بجنةٍ عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين.

فحقاً أجاد المصنف وأفاد.

وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب معتمدين على المخطوط المصور بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم (٤٩٧ توحيد وعلم كلام) عن مخطوطة دير إسكوريال بإسبانيا تحت رقم (١٥٣٦:٧) خط ٦٥٥هـ في حياة المؤلف.

ويقع المخطوط في ورقتين (١٣٧/ب ـ ١٣٩/م). وله رقم آخر في المعهد بعد

فصله كغيره من رسائل العز مفرداً (٢٥٣ فقه شافعي).

وكذلك اعتمدنا النسخة المطبوعة آخر كتاب «مُعيد النِّعَم ومبيد النِّقَم» لتاج الدين ابن السُّبكي، طبع المطبعة الأدبية بالقاهرة، ومطبوعة دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٨م وغيرها من المطبوعات لهذا الكتاب.

وقد آثرت في ضبط النص، إبداءه واضحاً من غير تعليق لضبطه وفروقه خشية الإطالة والتشويش، فالغرض خروج النص سليماً واضحاً، خالياً من الأخطاء إن شاء الله تعالى.

وقمنا بتخريج الأحاديث النبوية والتعليق على بعض المواضع في الكتاب.

وآخراً نسأل الله توفيقه وتيسيره إلى ما يحبه ويرضاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل وأبو الحسن أحمد فريد المزيدي الأزهري

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما
قال الشيخ الإمام حجة الإسلام [illegible]
الإمام [illegible] عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم
السلمي الشافعي نفع الله به المسلمين وغفر
لوالديه ولجميع المؤمنين أجمعين
أما بعد فإن المحن والبلايا والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس
معرفة عز الربوبية وقهرها أحدها معرفة ذلة العبودية وكسرتها
وإليه الإشارة بقوله الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه
راجعون اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه
وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه الثالثة الإخلاص
لله إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلا إليه ولا معتمد في كشفها إلا عليه
وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإذا ركبوا في الفلك دعوا
الله مخلصين له الدين الرابعة الإنابة إلى الله والإقبال عليه وإذا مس
الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه الخامسة التضرع والدعاء وإذا مس
الإنسان الضر دعانا وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه بل إياه
تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه
تضرعا وخفية السادسة الحلم عمن صدرت عنه المصيبة إن إبراهيم
لأواه حليم [illegible]
[illegible]
[illegible] السابعة العفو عن جانيها والعافين
عن الناس [illegible]

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

فجاركم في بطونهم من الجوع ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بر
في يوم مرتين وأوذي بأنواع الأذية حتى عدوا الحب أهله إليه بما ابتلي في الحسد
الأمر مسيلمة وطليحة والعنسي ولقي هو وأصحابه من جيش العسرة ما القوة وماتت
ودرعه عند يهودي على أصع من شعير ولم تزل الأنبياء والصالحون مجهودين بالبلا
الوقت بعد الوقت على زمان وادركه فإن كان صليبا في دينه شدد في بلائه ولقد
كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه ولا يصده ذلك عن دينه وقال عليه السلام
مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء وقال
عليه السلام مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى
تهيج فجاءته لشدته والبلوى تنزل بالعبد إلى الله عز وجل وحال العافية والنعم صارفة
للعبد عن ربه وإذا أمن الإنسان الصدر عاد الخشية او قاعدا او قايما فلما كشفنا عنه ضره
مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ولأجل هذا تقللوا في المآكل والمشارب والملابس والمناكح
والمجالس والمساكن والمراكب عن ذلك ليكونوا على حال توجب الرجوع الى الله عز
وجل والإقبال عليه م

المسألة الثالثة عشرة

الرضى الموجب لرضوان الله فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر فمن سخطها فله السخط
وخسران الدنيا والآخرة ومن رضيها فله الرضى والرضى أفضل من الجنة وما فيها
لقوله تعالى ورضوان من الله أي من جنة عدن ومساكنها الطيبة فهذه نبذ مما
حضرني من فوائد البلوى ونحن نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة فلسنا من رجال البلوى

تمت الفوائد بحمد الله ومنه ولطفه
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
وهو حسبنا ونعم الوكيل

وكان الفراغ منه لست خلون من شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين [illegible] م
عفا الله لقارئه وسامعه ولكاتبه ولجميع المسلمين والحمد لله وحده

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

قال الشيخ الإمام، حجة الإسلام، معتمد الأنام، [أبو] محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السُلمي الشافعي، نفع الله به المسلمين، وغفر لنا وله ولجميع المؤمنين.

للمصائب والمِحَنِ، والبلايا والرزايا، فوائد تختلف باختلاف رُتَبِ الناس.

أحدها: معرفة [عزِّ] الربوبية وقهرِها.

الثانية: معرفة ذلَّةِ العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمِه وتدبيره، وقضائه وتقديره، لا مفرَّ لهم منه، ولا مَحِيدَ لهم عنه.

الثالثة: الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلاَّ إليه، ولا معتمدَ في كشفِها إلا عليه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[1] [الزمر: ٨].

الخامسة: التضرّع والدُّعاء: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣].

---

(١) قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «التحسب بالله هو استكفاء القلب بما يدفعه من المحسن والبلايا والفتن والرزايا، أليس الله بكاف عبده، ويكون التحسب بالقلب، وبقول الجنان، ونطق اللسان». (شجرة المعارف ٢١/أ/ق) بتحقيقنا.

السادسة: الحِلْمُ عمن صدرت عنه المصيبة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، «إن فيك خَصْلَتَيْنِ يحبُّهما الله: الحِلْمُ والأناة»[١].

وتختلف مراتب الحِلْم باختلاف المصائب في صغرها وكِبَرِها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حِلْم.

السابعة: العفوُ عن جانيها: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] والعفوُ عن أعظمها أفضل من كلِّ عفو.

الثامنة: الصبرُ عليها[٢].

وهو موجبُ محبة الله تعالى وكثرة ثوابه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، «وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٣].

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها. قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إن كانوا ليَفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»[٤]. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «حبَّذا المكروهان: الموتُ والفَقر»[٥]؛ وإنما فرِحُوا بها إذ [لا وقع]

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (١٧)، (١/ ٤٨)، عن ابن عباس مرفوعاً. وكذلك رواه مسلم أيضاً (١/ ٤٨، ٤٩)، (١٨) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. وانظر: شجر المعارف والأحوال للعزّ (٢٥/ ب/ ق) بتحقيقنا ـ بيروت.

(٢) جعل العزُّ الصبر من المأمورات الباطنة، وانظر: شجرة المعارف والأموال (٢٨/ أ/ ق) فما بعدها. بتحقيقنا ـ بيروت.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، عن أبي سعيد مرفوعاً.

(٤) حديث ضعيف، رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٩٤)، ليس عند ابن ماجه، ومعمر بن راشد في الجامع [١١/ ٣١٠]، وعبد بن حميد في مسنده [١/ ٢٩٧]، وابن أبي عاصم في الزهد [١/ ٦٠] أو فيه رجل مجهول. وقال البوصيري عنه: إسناده صحيح.

(٥) إسناده حسن: روي من حديث ابن مسعود: من طريق عاصم بن علي، ثنا المسعودي عن علي بن بذيمة عن قيس بن حبتر عن عبد الله بن مسعود، أخرجه الطبراني في الكبير [٩٢١٩]ـ ح [٨٥٠٥]، ومن طريق جعفر بن عون ثنا المسعودي عن علي بن بذيمة عن قيس عن عبد الله بن مسعود، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان [٧/ ١٩٦]ـ ح [٩٩٧٥]، ومن طريق ابن المبارك ثنا المسعودي بالإسناد السابق أخرجه ابن المبارك في الزهد [١/ ١٩٩]ـ ح [٥٦٦]، ومن طريق يعلى بن عبيد الطنافسي ثنا المسعودي بالإسناد السابق، أخرجه هناد في الزهد [١/ ٣٣٠]ـ ح [٦٠٥]، ومن طريق وكيع عن المسعودي به أخرجه الإمام أحمد في الزهد [١٥٦]. قال الحافظ ابن حجر: قال عبد الله بن أحمد عن أبيه سماع وكيع من المسعودي قديم، وأبو نعيم أيضاً، وإنما اختلط المسعودي ببغداد، ومن سمع منه بالكوفة والبصرة فسماعه جيد. انظر تهذيب التهذيب [٦/ ١٩١]ـ[ت/ ٤٠٥٩]..

لشدّتها ومرارتِها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها؛ كما يفرح من عَظُمت أدْوَاؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها مع تجرُّعه لمرارتها[١].

العاشرة: الشُّكر عليها، لما تضمنته من فوائدها كما يشكر المريضُ الطبيب القاطع لأطرافه، المانعَ له من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البُرء والشفاء.

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، «ولا يصيبُ المؤمن وصَبٌ ولا نَصبٌ حتى الهمّ يُهَمُّهُ، والشوكة يشاكُها، إلا كفَّرَ به عن سيئاته»[٢].

الثانية عشرة: رحمةُ أهل البلاء ومساعدتهم على بَلْواهم، و«الناسُ معافى ومبتلى فارحموا أهلَ البلاء، واشكروا الله على العافية»[٣].

وإنمـا يـرحـمُ الـعُـشَّـاقَ مَـنْ عَـشِـقَـا

الثالثة عشرة: معرفة قَدْرِ نعمةِ العافية، والشكر عليها؛ فإن النِّعَمَ لا يُعرفُ مقدارها إلا بعد فقدها.

الرابعة عشرة: ما أعدَّهُ الله تعالى على هذه الفوائد من ثوابِ الآخرة على اختلاف مراتبها.

الخامسة عشرة: ما في طَيِّها من الفوائد الخفيَّة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ١١].

ولما أخذ الجبّار سارة من إبراهيم كان في طيّ تلك البليّة والمصيبة أن أخدَمَها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فكان من ذريّة إسماعيل سيِّدُ المرسلين وخاتَمُ النبيين. فأعظم بذلك من خيرٍ كان في طيّ تلك البَلِيّة[٤].

---

(١) قال الإمام الزاهد الحارث المحاسبي: «وقال الإمام علي رضي الله عنه: يا ابن آدم، لا تفرح بالغنى، ولا تقنط بالفقر، ولا تحزن بالبلاء، ولا تفرح بالرخاء، فإن الذهب يُجرَّبُ بالنار، وإن العبد الصالح يُجرَّب بالبلاء، وإنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلُغ ما تأمُلُ إلا بالصبر على ما تكره، وابذل جهدك لرعاية ما افتُرضَ عليك»، وانظر رسالة المسترشدين (ص٥١).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢)، عن عائشة مرفوعاً بنحوه. ورواه البخاري أيضاً بنحوه (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً.

(٣) مرسل: هو من قول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، أخرجه مالك في «موطأه» (٢/ ٩٨٦)، وأحمد بن درهم في الزهد والمنافقين [٧٢١١] ـ ح [١٣٦] والبيهقي في الزهد الكبير [١٦٧١٢ـ ١٦٨]ـ ح ـ [٣٨٤]، وابن أبي عاصم في الزهد [١/ ٥٦].

(٤) بنحو هذا ذكره المؤلف في «شجرة المعارف»، بتحقيقنا.

وقد قيل:

كَمْ نِعْمَةٍ مَطْوِيَّةٍ لَكَ بينَ أثناءِ المصائب

[وقال آخر:

رُبَّ مبغوضٍ كريهٍ فيه لِلَّهِ لطائفْ]

السادسة عشرة: إن المصائب والشدائد تمنعُ من الشرِّ والبَطَر، والفخر والخُيَلاء، والتكبُّر والتجبُّر؛ فإن نُمرود لو كان فقيراً سقيماً فاقِدَ السمع والبصر لما حاجَّ إبراهيم في ربِّه، لكن حمله بَطَرُ الملْك في ذلك. وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجَّته بإتيانه المُلكَ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ (1) [البقرة: ٢٥٨].

ولو ابتُلِيَ فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝﴾ [العلق: ٦-٧]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ [هود: ١١٦]، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝﴾ [سبأ: ٣٤].

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباعُ الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة، كان «أشد [الناس] بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، [ثم] الأمثل فالأمثل» (2). فنُسبوا إلى الجنون والسحر والكهانة، واستُهْزِئ بهم وسُخِرَ منهم، ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقيل لنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وتغرَّبوا عن أوطانهم، وكثُر عناؤهم، فاشتدّ بلاؤهم، وتظافر أعداؤهم، فغُلِبُوا في بعض المواطن، وقُتِلَ منهم بأُحُد وبئر مَعُونة وغيرهما من قُتل، وشُجَّ وجه رسول الله ﷺ، وكُسِرت رباعيته،

---

(١) انظر شجرة المعارف والأحوال «للمصنف» (٨٨/ ب/ ق) بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي (٢٤٠٠)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٧٢)، والدارمي (٢٧٨٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً.

وهُشمتِ البَيضَةُ على رأسه، وقُتلت أعزاؤه ومثِّل بهم؛ فشمتت أعداؤه، واغتَمَّ أولياؤه، وابتلوا يوم الخندق، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] فكانوا في خوف دائم، وعُري لازم، وفقرٍ مُدْقع، حتى شدّوا الحجارة في بطونهم من الجوع؛ ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بُرٍّ في يوم مرتين»[١]؛ فأوذي بأنواع الأذيّة حتى قذفوا أحبَّ أهله إليه، ثم ابتُلِيَ في آخرِ الأمر بمُسَيلمة وطُلَيحة والعَنْسي، ولَقِيَ هو وأصحابه من جيش العسرة ما لَقُوْه، ومات ودرعُه [مرهونةٌ] عند يهودي على آصع من شعير[٢]، ولم تزل الأنبياء والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بعد الوقت، يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان صُلباً في دينه شُدِّدَ في بلائِه؛ ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مَفْرِقه، فلا يصدُّهُ ذلك عن دينه. وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمن كَمَثَلِ الزَّرع، لا تزال الريحُ تُمِيلُه ولا يزالُ المؤمنُ يُصِيبُه البلاء»[٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «مثلُ المؤمن كمثل الخامةِ من الزَّرع [تَفَيِّؤُها الريح]، تضرعُها مرة وتَعدِلُها أخرى حتى تَهيج»[٤].

فحال الشدَّة والبلوى مُقبلةٌ بالعبد إلى الله عز وجل، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

ولأجل هذا تقلَّلُوا في المآكِل والمشارب، والملابس والمناكح، والمجالس والمساكن، والمراكب وغير ذلك؛ ليكونوا على حالةٍ تُوجبُ [لهم] الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه.

السابعة عشرة: الرِّضا المُوجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزلُ بالبَرِّ والفاجر، فمن سخِطها فله السُّخْطُ وخُسرانُ الدنيا والآخرة، ومن رَضِيها فله الرِّضا، والرِّضا أفضلُ من الجنة وما فيها، لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أي: من جنّةِ عَدْنٍ ومساكنِها الطيِّبة.

فهذه نُبَذٌ مما حضَرَنا من فوائد البَلْوى.

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (٢٩٧٠)، عن عائشة مرفوعاً.

(٢) وقدرها ثلاثون صاعاً كما في صحيح البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة.

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩)، وأبو نعيم في «صفات المنافقين» بتحقيقنا.

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠)، وأبو نعيم في «صفات المنافقين» بتحقيقنا.

ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة؛ فلسنا من رجالِ البلوى.

وفّقنا الله تعالى للعمل بما يحب ويرضى، وبرّأنا من المِحَن والرزايا.

تمّتِ الفوائد بحمد الله ومَنِّه ولطفه، وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليماً، وهو حسبنا ونِعمَ الوكيل.

وكان الفراغ منه لتسع خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة، غفر الله لقارئه، ومستمعه، وكاتبه، ولجميع المسلمين، والحمد لله وحدَه.

القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراط الساعة

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي
المتوفى ٩٠٢ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل
أحمد فريد المزيدي



ترجمة المصنف

هو الشيخ الحافظ المحدث محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد الملقب بشمس الدين، أبو الخير وأبو عبد الله بن الزين، أبو الفضل وأبو محمد السخاوي.

ولد في القاهرة سنة [٨٣١هـ]، في حارة بهاء الدين علو الدرب المجاور لمدرسة الشيخ البلقيني محل أبيه وجده، حفظ القرآن في سنّ مبكرة، ولازم شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني، هو من أهم شيوخه، وأخذ عن الشيخ أحمد بن يعقوب بن أحمد الأحفيحي القاهري الأزهري، والشيخ أسعد بن محمد بن محمد بن المنجا التنوخي، والشيخ محمد بن أحمد بن عماد الدين بن يوسف الأقفهي، وغيرهم.

له مؤلفات كثيرة منها: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، والمقاصد الحسنة، فتح المغيث، القول البديع في الصلاة على الحبيب، القناعة في أشراط الساعة [وهو كتابنا].

توفي رحمه الله في المدينة سنة ٩٠٢هـ(١).

وصف النسخة الخطية

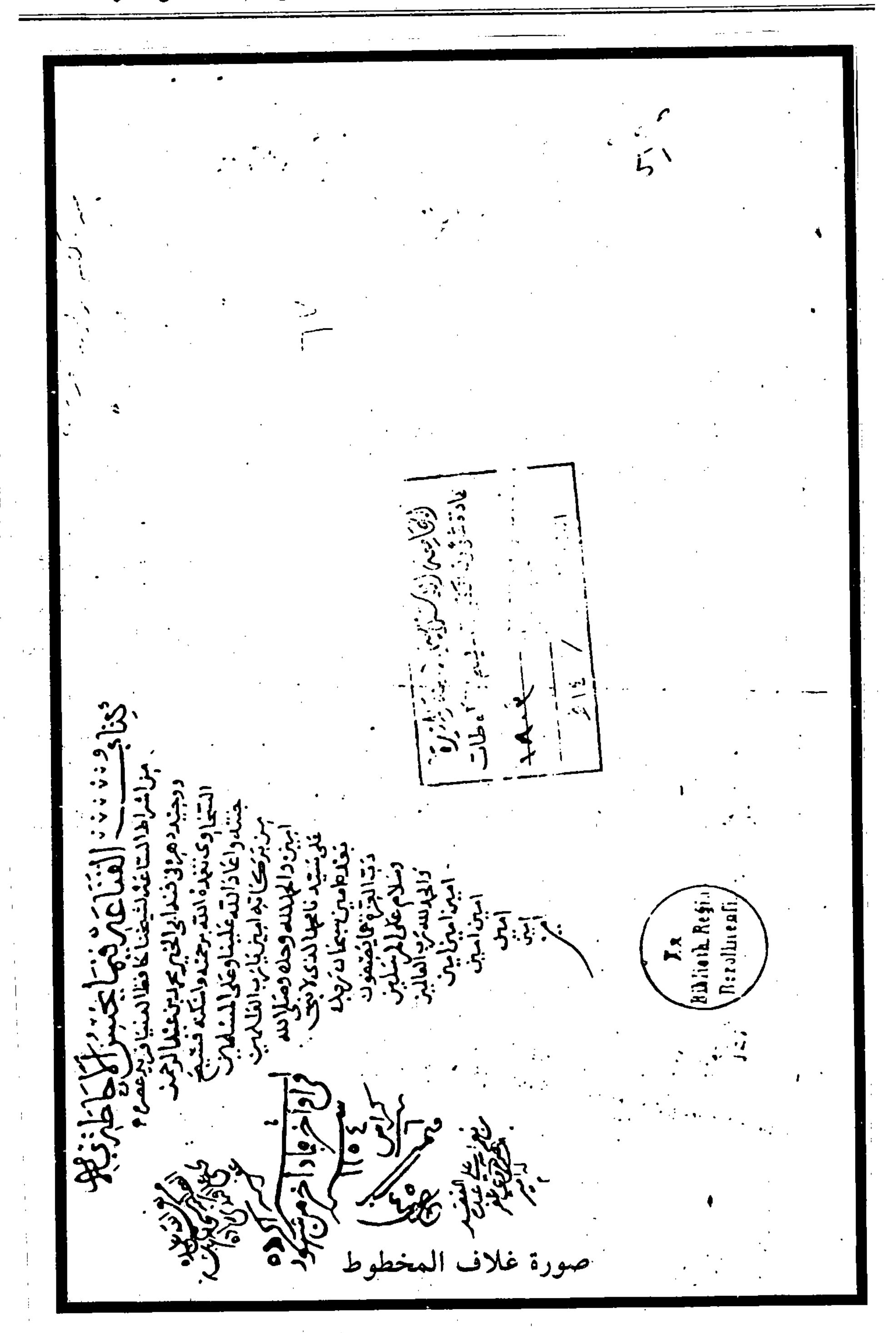
لقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب بالإضافة إلى المطبوعة على نسخة برلين الغربية الكائنة في الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، تحت رقم [١٨٠٣]، وتقع في [٣٣/ ق].

كتبه محمد حسن محمد حسن إسماعيل

الشافعي، الشهير بـ [محمد فارس]

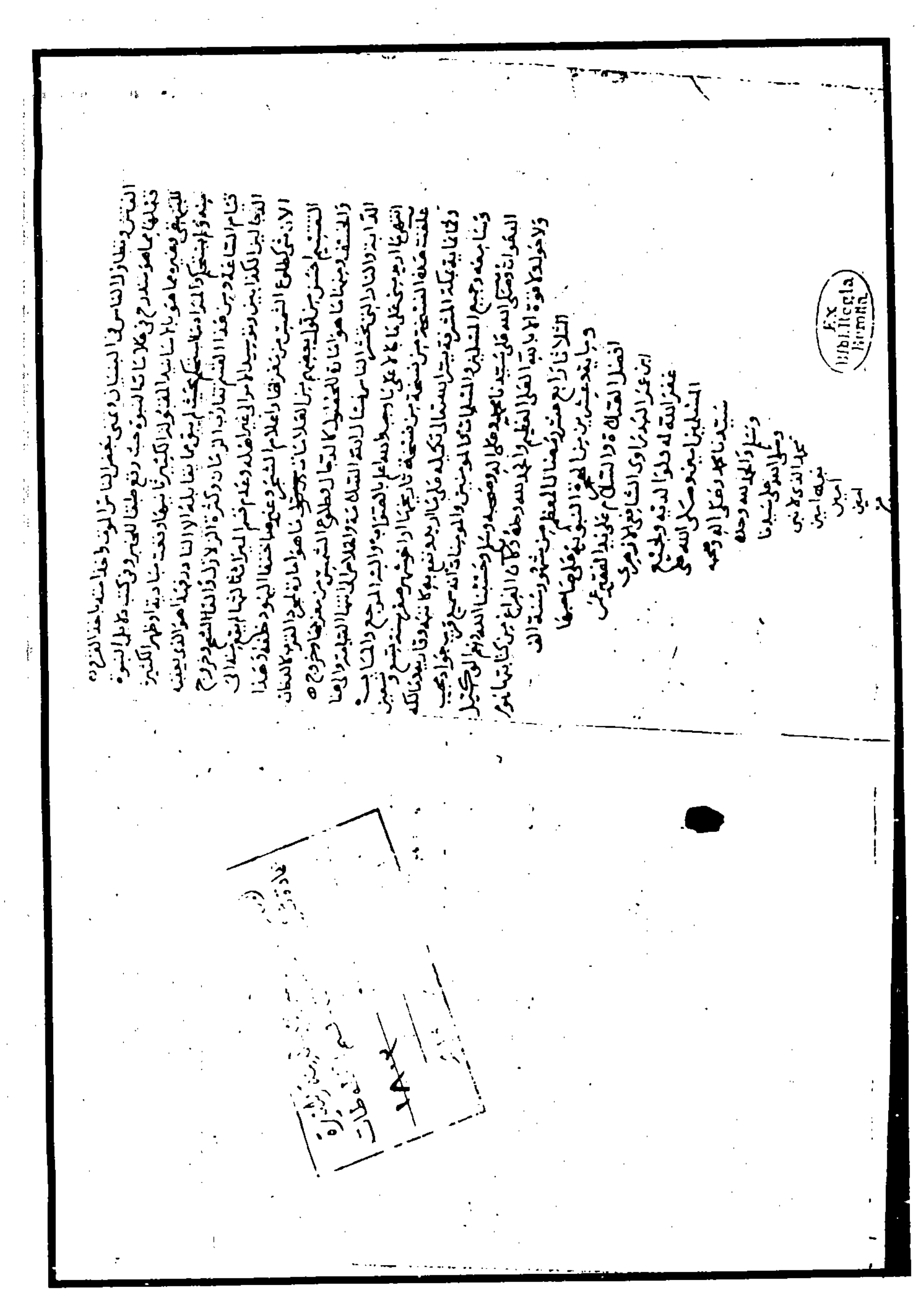
---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع [٨ـ ٢١٨ـ ٣٢] البدر الطالع [٢/ ١٨٤١ـ ١٨٧]، شذرات الذهب [١٥١٨ـ١٧]، معجم المؤلفين [١٠/ ١٥٠]، الأعلام للزركلي [٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥].



صورة غلاف المخطوط

صورة الورقة الأولى من المخطوط



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

مقدمة المصنف

بسم الله الرحمٰن الرحيم (حسبنا الله ونعم الوكيل) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. الحمد لله العالم بما كان وما يكون والدائم الإحسان في الحركة والسكون المخلَّص المخلِصَ له من الموحدين المجتهدين من المحن وسائر الفتن ما ظهر منها وما بطن، والمخصص من اصطفاه منهم بالإرشاد والاستناد لكل حسن مع ابتلائه لمن شاء بالاختبار لا بخفاء الحقائق عنه في الإسرار فضلاً عن الإظهار في الليل والنهار من الماضي والحال والآتي في الاستقبال من الأعمار، بل لإقامة الحجة عليه بالاختبار. ولكنا نتوجه إليه أن لا يهتك منا الأستار فإنه لا طاقة لنا إلا بالعفو واستصحاب قبول الاستغفار، ونقتفي أثره ﷺ مقتدين به في استعاذته من شر الفتن مع تناهيه وعلو رتبته حيث قال من جملة ما أوضح فيه المشكل وبيَّن منه المشتبه: «اللهم إذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[١].

نعوذ بالله من الفتن [ما ظهر منها] وما بطن، وما ظهر للعيون، ونعوذ بالله الكبير المتعال من شر فتنة المسيح الدجال، إلى غيرها من الدعوات الجليلة الاحتفال. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم المآل. وبعد:

فهذه عجالة يومية، ودلالة شهية، في الإشارة لشيء من الفتن الآتية، ليكون المراد بها على بصيرة منها بالأذن الواعية، والفكرة الساعية، وإن كان المعول في الاستقامة على تثبيت المولى لعبده، وإلهامه لما يكون سبباً لسعده، ولذا نسأله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويصرف قلوبنا التي هي في قبضة قهره وملكه إلى ما يرتضيه من الخيرات المتظاهرة بادرت بها امتثالاً لمن شارك في الفضائل من المتوجهين للاستقامة وكرم الشمائل حتى سبق بها كثيراً من أقرانه السابحين في بحار الغفلة والغوائل، بل ربما يلتحق بكثير من أهل الطبقة الذين قبلهم من الأوائل،

(١) رواه أحمد في مسنده [١/ ٣٦٨] والترمذي [٥/ ٣٦٦] وغيرهم وإسناده صحيح.

مع اشتغاله بالتجارة المستغنى بها عن الرذائل، وإن كان في تعب وكد غني شرحه عن إقامة الدلائل، فالجنة محفوفة بالمكاره وثقيل الوسائل ونعم المال الصالح مع العبد الصالح، لتمكنه فيه من الخير الطائل.

وما أحسن قول سفيان الثوري رحمه الله: «لولا هذه البضاعة الذي بأيدينا لتمندل بنا أرباب الولايات في المدائن والقبائل».

وكان عبد الله بن المبارك إمام الأئمة، والمقدم عند كل قائل، يتجر بقصد القيام بكفاية جماعة من العلماء، ليفرغهم للاشتغال بشريف الخضائل. وفقنا الله تعالى وإياه وبني عمه، وصرف عنا كل مكروه زائل، وجمع شملهم على ممر الليالي والأيام، مبلغين كل فضل نائل [فهم] جواهر في هذا الوقت المائل.

وهذا حين الشروع في المقصود مستعيناً بربنا المحمود، فأقول:

حكى البيهقي عن شيخه الحاكم أنه قال: «أول الآيات ظهوراً خروج الدجال، ثم نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم فتح يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها»[1]. وسيأتي في كلام الحاكم أيضاً أن خروج الدابة بعد طلوع الشمس مع توجيهه.

وكلها ذكرت في القرآن إما صريحاً أو إيماءاً بحيث انتقد القائل كيف لم يذكر الدجال فيه مع ما ذكر عنه من الشر وعظيم الفتنة به وتحذير الأنبياء منه والأمر بالاستعاذة منه حتى في الصلاة بأنه ذكر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فقد أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة: «ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها»[2].

وأيضاً فقد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١] مع ما صح أنه هو الذي يقتله، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر.

ولكونه يلقب بالمسيح كعيسى، لكن الدجال مسيح الضلالة، وعيسى عليه الصلاة والسلام مسيح الهدى[3].

---

(١) انظر فتح الباري [١٣/ ٨٢ـ٨٩].

(٢) رواه مسلم في الإيمان [١/ ١٣٨] وهو في الترمذي في أبواب التفسير [٤/ ٣١٩ رقم ٦٧ـ٥].

(٣) انظر النهاية لابن كثير [١/ ١٦٧].

بل قال البغوي في «تفسيره»: «إن الدجال هو المراد بالناس في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] من إطلاق الكل على البعض».

وهذا كما قال شيخنا إن ثبت أحسن الأجوبة، فيكون من جملة من تكفل النبي ﷺ ببيانه.

على أن البلقيني قال: إنه اعتبر كل من ذكر في القرآن من المفسدين فوجد كل من ذكر إنما هم ممن مضى وانقضى أمره وأما من لم يجىء فلم يذكر منهم أحد.

لكنه منتقض بيأجوج ومأجوج.

فلنتكلم على هذه الخمسة:

فأما الدجال، وأخباره تحتمل مجلداً بحيث أفردها غير واحد من الأئمة بالتأليف.

ومنها قوله ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أو أمر أكبر من الدجال»(١).

ومن الوارد فيه مما قاله فيه أحد رواته الإمام أبو محمد عبد الرحمٰن بن محمد المحاربي أحد أتباع التابعين المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة: «أنه ينبغي أن يدفع إلى مؤدب الأبناء ليعلمه الصبيان في الكتَّاب»(٢).

وكذا قال النووي وغيره: كان السلف يستحبون أن يلقن الصبيان أحاديث الدجال ليحفظوها، وترسخ في قلوبهم ويتوارثها الناس.

قول أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، وكان أكثر خطبته عن الدجال والتحرز منه، وكان من قوله: «يا أيها الناس، إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم فتنة من فتنة الدجال، وإن الله تعالى لم يبعث نبيّاً بعد نوح عليه السلام(٣) إلا حذره أُمته، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأُمم وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل امرىء حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلة بين العراق والشام، فيعيث يميناً ويعيث شمالاً. ألا يا عباد الله فاثبتوا، فإنه يبدأ فيقول: أنا نبي وإنه لا نبي بعدي، ثم يثني فيقول: أنا ربكم ولن ترو ربكم حتى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما [٤/ ٢٢٦٦].
(٢) رواه ابن ماجه في سننه [٢/ ١٣٦٣].
(٣) مسلم [٤/ ٢٢٤٥].

تموتوا، إنه أعور (يعني) العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية»[١].

وفي رواية: «أعور العين اليمنى».

وفي أخرى: «ممسوح العين عليها ظفرة غليظة[٢]، وإن ربكم ليس بأعور، وأنه مكتوب بين عينيه كافر - يعني مفرقة «كـ ا ف ر»[٣] - يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب».

زاد في رواية: «جفال الشعر[٤]، وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فناره جنة وجنته نار، فمن ابتلي بناره (فليستعن) بالله وليقرأ (فواتح) سورة الكهف فيكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم عليه السلام».

وفي رواية أخرى: «لأنا بما مع الدجال أعلم منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركن أحداً فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم ليطأطأ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد»[٥].

وفي رواية: «فلا تهلكوا»[٦].

«ومن لقيه منكم فليتفل في وجهه»[٧].

وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وبعثت لك أمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان على صورة أبيه وعلى صورة أمه، فيقولان له: يا بني اتبعه فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمنشار (وحين) يلقيها شقين.

زاد في رواية: «ويمشي الدجال[٨] بينهما ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن ثم يزعم أن له رباً غيري، ثم يبعثه الله فيقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله وأنت عدو الله الدجال، والله ما كنت قط أشد بصيرة فيك مني (الآن)».

زاد في رواية: «فيريد أن يقتله ثانياً فلا يسلط عليه»[٩].

---

(١) البخاري [١٣/ ٩٠] ومسلم [٤/ ٢٢٤٧].
(٢) مسلم [٤/ ٢٢٤٩].
(٣) مسلم [٤/ ٢٢٤٨].
(٤) مسلم [٤/ ٢٢٤٨].
(٥) مسلم [٤/ ٢٢٤٨].
(٦) مسلم [٤/ ٢٢٤٨].
(٧) الحاكم [٤/ ٥٣٦] والطبراني في الكبير [٨/ ١٧١ رقم ٧٦٤٤].
(٨) مسلم [٤/ ٢٢٥٦].
(٩) البخاري [١٣/ ١٠١ـ مع الفتح]، ومسلم [٤/ ٢٢٥٦].

وفي رواية: «ثم يدعو (رجلاً) ممتلياً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك[١]. فقال رسول الله ﷺ: ذاك الرجل أرفع أمتي في الجنة، وكان بعض الصحابة يظن أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما مات علموا أنه غيره»[٢].

«وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت، وأن يمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر وأدره ضروعاً».

وفي رواية: «أنه يأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنه، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل»[٣].

«وإن من فتنته أن يركب حماراً ما بين أذنيه أربعون ذراعاً، وأنه يصيح ثلاث صيحات يسمعهن أهل المشرق وأهل المغرب»[٤].

وأنه لا يبقى شيء إلا وطئه، وظهر عليه إلا مكة والمدينة، فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابها إلا لقيته الملائكة صلتاً بالسيوف، حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة.

وفي رواية: «وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة[٥] فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له: أشهد إنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ وذكر ما تقدم في قتله[٦].

فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات[٧] فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه تنفي المدينة يومئذ الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، يدعى ذلك اليوم يوم الخلاص[٨].

---

(١) مسلم [٤/ ٢٢٥٣].

(٢) انظر سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٦٠.

(٣) صحيح مسلم [٤/ ٢٢٥٠ رقم ٢٩٣٧].

(٤) رواه الحاكم في المستدرك [٤/٥٣٨].

(٥) البخاري [٢/ ٦٦٥ رقم ١٧٨١] ومسلم [٢/ ١٠٠٥ رقم ١٣٧٩].

(٦) البخاري [١٣/ ١٠١] ومسلم [٤/٢٢٥٦].

(٧) رواه البخاري [١٧/ ٩٠ رقم ٧١٢٤ـ الفتح] ومسلم [رقم ٢٩٤٣].

(٨) رواه أحمد في مسنده [٤/ ٣٣٨] والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٤٣].

فقالت أُم شريك بنت أبي العكر: يا رسول الله، فأين الناس؟ قال: «هم يومئذ قليل وجلهم يومئذ ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فيسير الدجال حتى ينزل فيها فيحاصرهم[١] فبينما هو محاصرهم إذ نزل عيسى عليه السلام حين يدخل ذلك الإمام في صلاة الغداة فإذا رأى الإمام عيسى عليه السلام عرفه فيرجع القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أُقيمت، فيصلي عيسى عليه السلام وراءه[٢] فإذا سلم ذلك الإمام قال عيسى عليه السلام: افتحوا وأقيموا الباب، فيفتح ووراؤه الدجال معه سبعون ألف يهودي[٣] كلهم ذو سيف مُحَلًى وساج فإذا نظر إليه ذاب كما يذوب الملح في الماء وانماع، ثم ولّى هارباً، فيقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك لضربة لن تفتني بها. فيدركه عيسى عليه السلام عند باب لُدِّ الشرقي فيقتله ويهزم الله عز وجل يهوده ويقتلون أشد القتل فلا يبقى شيء مما خلق الله دابة ولا شجر ولا حجر يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء فيقول: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه لا ينطق، ويقال: إنه من شجرهم»[٤].

وفي رواية: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، فإذا رفعه تحدر منه مثل الجمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله»[٥].

قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى عليه السلام في أُمتي حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير وترفع الشحناء والتباغض وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحنش فلا يضره وتُفِرُّ الوليدة الأسد فلا يضرها ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها يملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد غير الله وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نبتها كعهد آدم عليه السلام، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم [ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم] ويكون الفرس بالدريهمات ويكون الثور بكذا وكذا من

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٣٠] مختصراً.
(٢) رواه البخاري [٦/ ٤٩١ـ الفتح] ورواه مسلم [٢/ ١٩٣ـ النووي].
(٣) رواه مسلم [رقم ٢٩٤٤].
(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٣٩ رقم ٢٩٢٢].
(٥) مسلم [٤/ ٢٢٥٣].

المال، فقيل: يا رسول الله، ما يرخص الفرس؟ قال: لا يركب لحرب أبداً، قيل: فما يغلي الثور؟ قال: تحرث الأرض كلها وإن أيامه أربعون سنة فسنة كنصف سنة وسنة كثلث سنة والسنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم وآخر أيامه كالشررة فيصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي[(١)]، قيل: يا رسول الله، فكيف نصلي في هذه الأيام القصار؟ قال: تقدرون فيها الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم تصلون». وفي رواية: «قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح»[(٢)].

«وإن قبل خروجه سنوات شدائد يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء أن تحبس ثلث مطرها ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله في السنة الثالثة فلا تمطر قطرة، ويأمر الأرض فلا تنبت خضراء فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله. قيل: يا رسول الله، فما يعيش الناس إذا كان ذلك؟ قال: التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير يجري ذلك مجرى الطعام».

وكان أبو أمامة رضي الله عنه إذا حدث بهذا الحديث يقول: «وما نسيته أكثر»[(٣)].

قلت: وقد أدخلت في تضاعيفه أشياء صحيحة من حديث غيره أشرت إليها بقولي: وفي رواية.

ولا بأس بالإشارة لشيء من غريبه وفوائده:

فذُرا بالمعجمة وخَلة[(٤)] بالفتح والمعجمة، أي: أخذ في طريق بين الشام والعراق، وزعم بعضهم أنه يروى بالحاء المهملة وضم اللام قال: وكأنه يريد حلوله وليس بجيد.

ويعيث بالمثلثة، أي: يفسد، فأصل العيث الفساد.

واثبتوا، هو أمر من الثبات وتحريض على عدم التزلزل ومفارقة هذا الدين القيم

---

(١) رواه مسلم [رقم ٢٩٤].

(٢) مسلم [٤/ ٢٢٥٢].

(٣) رواه ابن ماجه [٢/ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧] وأبو داود [٤/ ٤٩٧ رقم ٤٣٢٢] والطبراني في الكبير [٨/ ١٧٢ رقم ٧٦٤٥] والطوال رقم (٤٨) والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٣٦] والبيهقي في البعث والنشور [رقم ١٦٠] وابن عساكر في تاريخ دمشق [١/ ٢٩٣ـ ٢٩٤] وغيرهم.

(٤) انظر شرح مسلم للنووي [١٨/ ٦٥] والنهاية في غريب الحديث [٢/ ٧٣].

والإعراض عن هذه التمويهات والتوهمات، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، وفي الرواية الأخرى: «ولا تهلكوا» يعني: إن لم تثبتوا.

والطافئة بالهمزة وغيرها، فالمهموزة التي ذهب نورها، وغير المهموزة التي نتأت وطفئت، ثم إنه لا تنافي بين اختلاف الروايتين في محل العور؛ إذ العور في اللغة العيب، وعيناه طافية بلا همزة ظاهرة ناتئة.

والجُفَال الكثير، أي: الكثير الشعر.

والجَزلتان: القطعتان ـ بالفتح، وحكي الكسر، ومعنى رمية الغرض: أن يجعل بين الجزلتين ـ مقدار رمية الغرض، ولذا جاء أنه يمشي بينهما.

والسارحة: الماشية التي تسرح، أي: تذهب أول النهار إلى المرعى، ومعنى تروح، أي: ترجع.

والذُّرى: ـ بضم المعجمة ـ الأعالي والأسنمة وهو جمع ذروة بضم الذال وكسرها.

وأسبغه: بالمهملة ثم المعجمة، أي: أطوله لكثرة اللبن، وكذا وأمده خواصر: جمع خصر، وذلك لكثرة اقتلابها من الشبع.

ويعاسيب النحل: هي ذكورها، والمراد جماعتها لا ذكورها خاصة ولكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها؛ لأنه متى طار تبعته جماعته[١].

والظُّرَيب: بالمعجمة تصغير ظرب، ككتف واحد الظراب الجبال الصغار.

والسبخة: الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

والساج: الطيلسان، وقيل: بخصوص المقور ينسج كذلك، وفي «الصحيح»: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألف عليهم الطيالسة».

وانساخ: قريب من معنى ذاب.

وباب لُدٍّ: هي بلد قريب من بيت المقدس.

والغرقد: ضرب من شجر العضاه شجر أُم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك.

والمنارة: بفتح الجيم موجودة اليوم كما قال النووي شرقي دمشق بكسر المهملة وفتح الميم على المشهور، وقيل: بكسر الميم.

وهذا الحديث من جملة فضائل دمشق ونزوله عليه السلام عندها في عدة أحاديث.

---

(١) انظر النووي على مسلم [١٨/ ٦٦ ـ ٦٧].

منها عن أوس بن أوس الثقفي بلفظ: «عليه مُمَصرتَان كأنما يقطر رأسه ماء»[١].

وفي لفظ: «ينزل بين ممصرتين».

والمُمَصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة.

ولا ينافيه ما عند الطبراني عن حذيفة رفعه أنه ينزل بإيلياء فذاك أول.

ويروى عن ابن عائش الحضرمي أنه يخرج عند المنارة البيضاء عن الباب الشرقي، ثم يأتي مسجد دمشق حتى يقعد على المنبر فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارى واليهود كلهم يرجونه حتى لو ألقيت شيئاً لم يصب إلا رأس إنسان من كثرتهم، ويأتي مؤذن المسلمين وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين[٢] وحينئذ يؤذن مؤذنهم وتخرج اليهود والنصارى من المسجد، ثم يخرج عيسى عليه السلام بمن معه من أهل دمشق يتبع الدجال إلى أن يأتي بيت المقدس فيجده مغلقاً قد حصره الدجال، قال: فيأمر عيسى عليه السلام بفتح الأبواب ويتبعه حتى يدركه بباب لُدٍّ ويذوب كما يذوب الشمع، ويقول عيسى: إن لي فيك ضربة، فيضربه فيقتله الله على يديه، ثم يمكث في المسلمين ثلاثين سنة أو أربعين ويهلك الله على يديه يأجوج ومأجوج فلا يبقى منهم عين تطرف وترد الأرض إلى بركاتها حتى أن العصابة يجتمعون على العنقود وعلى الرمانة وينزع (من كل ذات حُمَةٍ حُمَتها يعني سمها) حتى أن الحية تكون مع الصبي، والأسد مع البقرة، فلا يضران شيئاً، ثم يبعث الله ريحاً طيبة تقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس تقوم عليهم الساعة[٣].

والمهرودتان: بالدال المهملة في الأكثر، والمعنى ثوبان مصبوغان بالورس ثم بالزعفران، وقيل: هما شقتان والشقة نصف الملاءة.

والجُمان: بضم الجيم وتخفيف الميم حبات من فضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد: يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته فسمى الماء جماناً لشبهه به في الصفاء والحسن.

ولا يحل: بكسر الحاء، أي: لا يمكن ولا يقع.

ونفسه: بفتح الفاء، أي: لا يجد ريح نفسه إلا مات.

---

(١) رواه الربعي في فضائل الشام [ص٥٩] بتخريج الالباني وصححه ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق [١/ ٢٢٧] والإمام [٢/ ٤٠٦] وأبو داود [٤/ ١١٨] وابن حبان [٨/ ٢٨٧] والحاكم في المستدرك [٢/ ٥٩٥].

(٢) انظر تاريخ ابن عساكر [١/ ٢٢٨].

(٣) رواه ابن عساكر [١/ ٢٢٨ـ ٢٢٩].

ويدق الصليب ويقتل الخنزير، أي: يبطل دين النصرانية، ويكون الدين واحداً، فلا يعبد غير الله، زاد في رواية أخرى مع الخنزير القرد.

ووضع الجزية، أي: لعدم بقاء أحد يؤديها فإنه عليه السلام لا يقبل إلا الإسلام(١).

وترك الصدقة لكثرة إفاضة المال بحيث يدعى إليه فلا يوجد من يقبله؛ وذلك لنزول البركات وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم؛ وحينئذ تخرج الأرض كنوزها وتقيء أفلاذ كبدها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة(٢)، ولا يتقرب إلى الله حينئذ إلا بالعبادة من صلاة وصوم وغيرهما من شرائع الدين لا بالتصدق بالمال للاستغناء، بحيث كما صح تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها(٣).

ورَفْعُ الشحناءِ والتباغضِ، لفقد أسبابهما غالباً.

والحُمَةُ: بالتخفيف، السم، أي: ينزع سم كل دابة.

ووضعت الحرب أوزارها، أي: انقضى أمرها وخفت أثقالها حيث لم يبق قتال.

والمعنى في سلب قريش ملكها، أي: لا يصير لها مع نبي الله عيسى اختصاص بشيء دون مراجعته فلا يكون حينئذ معارضاً لقوله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان»(٤).

وفاثور: هو بالفاء الخوان يتخذ من الرخام ونحوه، قال الأغلب العجلي: إذا انجلى فاثور عين الشمس.

يقال: هم على فاثور واحد، أي: على مائدة واحدة ومنزلة واحدة، والفاثور أيضاً موقع، قال الجوهري: «وأضافه للفضة لصفائها وقبولها لما يلقى فيها».

ومن فوائده الرد على الحرالي المغربي الزاعم أنه استخرج من علم الحرف (وقت) خروج الدجال ووقت طلوع الشمس من مغربها مع أن هذه تحديدات وعلوم استأثر الله بها عن سائر أنبيائه ورسله فضلاً عن من دونهم.

ومنها أن الرجل الذي يأمر الدجال بقتله وينشر بالمنشار ـ بالياء فيهما، وقيل: بالنون ـ أو يقطع بالسيف جزلتين على اختلاف الروايتين.

---

(١) انظر فتح الباري [١٣/ ٥٦٧].

(٢) انظر فتح الباري [١٣/ ٥٦٨] وشرح مسلم للنووي [٢/ ١٩٠ ـ ١٩١].

(٣) روى البخاري [٦/ ٤٩١ ـ الفتح] ومسلم [١/ ١٣٥ ـ ١٣٦].

(٤) رواه البخاري في الأحكام [٦/ ٢٦١٢ رقم ٦٧٢١].

قال أبو إسحاق بن سفيان راوي «صحيح مسلم» عنه: «يقال: إنه الخضر»، وكذا قال معمر في «جامعه» وهذا مشي منهما على أنه حي، وذهب إليه جماعة كثيرون، ومنهم ابن الصلاح والنووي.

ولا مانع من الجمع بين الروايتين النشر والقتل، وجوز بعضهم أن يكونا رجلين.

ومنها إلحاق بيت المقدس بمكة والمدينة في عدم دخول الدجال لظاهر قوله: افتحوا الباب الذي الدجال من ورائه، ثم وجدت ذلك صريحاً في كتاب «باعث النفوس على زيارة القدس المحروس» للإمام شيخ الإسلام البرهان إبراهيم الفزاري بن الفركاني، فحكى في أثناء فضائله قوله: «ويمنع الله عزَّ وجل عدو الله الدجال الدخول إلى بيت المقدس ويغلب على الأرضين كلها إلا بيت المقدس ومكة والمدينة» انتهى.

بل عند أبي جعفر الطبري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص استثناء الكعبة وبيت المقدس من دخوله لهما. زاد الطحاوي: «ومسجد الطور» رواه من حديث جنادة بن أبي أُمية عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وفي بعض الروايات: «فلا يبقى موضع إلا يأخذه غير مكة والمدينة وبيت المقدس وجبل الطور فإن الملائكة تطرده عنها»[(١)].

ولأبي بكر بن أبي شيبة من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً: «وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة ثم يحاصر بيت المقدس وينزل عيسى عليه السلام فيقتله»[(٢)].

وعلى كل حال فالمقيم بواحد منها عصمته من الله عز وجل وإلا فقد ثبت أنه يخرج إليه كل منافق ومنافقة.

بل يروى أن أكثر أتباعه النساء، نسأل الله التوفيق وإصلاح فساد القلب[(٣)].

وأما ما يروى عن معاوية بن حيدة رفعه: «إذا كان آخر الزمان فعليكم بالشام فإنه من مات بالشام فكأنما مات ببيت المقدس». وعن أبي هريرة رفعه: «إذا وقعت الفتنة في مشارق الأرض ومغاربها فعليكم بعسقلان» فنعم للرباط وهو في أشباه لهما فلا يثبت.

نعم ثبت: «إن الله قد تكفل لي بالشام وأهله»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ٣٦٤، ٤٣٤ـ ٤٣٥].

(٢) مصنف ابن أبي شيبة [٧/ ٤٩٦ رقم ٣٧٥١٣] رواه أحمد في مسنده [٥/ ١٦ـ ١٧] والحاكم في المستدرك [١/ ٣٢٩ـ ٣٣١].

(٣) رواه أحمد في المسند [٣/ ٢٩٢].

(٤) رواه أحمد [٤/ ١١٠] [٥/ ٣٣ـ٢٨٨] وأبو داود [١/ ٣٨٨] وابن حبان في صحيحه [٩/ ٢٠٦ـ٢٠٧] والحاكم في المستدرك [٤/ ٥١٠] وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وكذا جاء: «معقل المسلمين من الملاحم دمشق[(١)]، ومن الدجال ببيت المقدس، ومن يأجوج ومأجوج الطور»[(٢)] ومع هذا كله فالمحفوظ من حفظه الله وثبته.

ومنها تعيين الإعلام باختفاء اليهود بأيام عيسى عليه السلام، فالحديث في «الصحيحين»[(٣)] اجتماعاً وانفراداً عن جماعة من الصحابة بدون تعيين فليقيد بما هنا.

ومنها كون السنين الخداعات قبله، ويمكن أن تكون هي الوارد أنه يكذب فيها الصادق، ويصدق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلم فيها الرويبضة، أي: الرجل التافه في أمر العامة[(٤)]، وهو المشار إليه بكون زعيم القوم أرذلهم وفاسقهم، وبذم إمرة السفهاء سيما وقد ثبت: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[(٥)].

فلا مانع من كون سببها الجدب، وقد فسر خداعها بكثرة الأمطار فيها وقلة الريع؛ لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر ثم تخلف، ويشهد له ما ثبت: «ليست السنة ألا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا ثم لا تنبت الأرض شيئاً»[(٦)].

وعن أنس قال: «كنا نتحدث ألا تقوم الساعة حتى تمطر السماء ولا تنبت الأرض»[(٧)].

ومنها عد عيسى عليه السلام في الصحابة، وهو وإن اشترك مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم في رؤيته ﷺ ليلة الإسراء فقد اختص بإتمامه بواحد من الأمة المحمدية وحكمه بشريعته ﷺ ونزوله في الأرض وكونه على أحد القولين رفع وهو حي، بل قال بعضهم: إنه لما وجد في الإنجيل فضل الأمة المحمدية إذ

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٥/ ١٩٧] وأبو داود [٢/ ٢١٠] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٨٦] وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر صحيح الجامع [رقم ٢١١٧] فضائل الشام للربعي [ص٣٨].

(٢) مسلم [رقم ٢١٣٧].

(٣) انظر صحيح البخاري [٦/ ٦٠٤ـ مع الفتح] مسلم [رقم ٢٩٢١ـ ٢٩٢٢].

(٤) رواه أحمد في مسنده [٢٥/ ٢٩١] وابن ماجه [٢/ ١٣٣٩، رقم ١٨٨٧] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٦٥]، وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي وذكره الالباني في «السلسلة الصحيحة» [رقم ٢٢٥٣] وصححه.

(٥) رواه البخاري في صحيحه [١/ ١٤٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [رقم ٢٩٠٤].

(٧) رواه أحمد في مسنده [٣/ ٢٨٦] والحاكم في مستدركه [٤/ ٤٩٥] وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عليه الذهبي.

قال: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] دعى الله أن يجعله من أمة محمد ﷺ فاستجيب دعاؤه ورفع إلى السماء إلى أن ينزل آخر الزمان مجدداً لما درس من دين الإسلام ودين محمد عليه الصلاة والسلام، انتهى.

ولذا ذكره في الصحابة الذهبي ثم شيخنا، وحين إذٍ فهو أفضل الصحابة مطلقاً وآخرهم موتاً.

وقد ألغز التاج السبكي حيث قال في قصيدته التي بآخر القواعد:

من باتفاق جميع الخلق أفضل من خير الصحاب أبي بكر ومن عمر
ومن علي ومن عثمان وهو فتى من أمة المصطفى المختار من مضر

قال النووي رحمه الله: «إذا نزل عيسى عليه السلام كان مقرراً للشريعة المحمدية لا رسولاً إلى هذه الأمة»[١].

زاد غيره: «ويكون قد علم بأمر الله تعالى في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم بين الناس والعمل به في نفسه».

ثم قال النووي: «يصلي وراء إمام هذه الأمة تكرمة من الله تعالى لها من أجل نبيها».

وفي «الصحيح»: «كيف بكم إذا نزل عيسى ابن مريم وإمامكم منكم».

قال: «وقد جاء أنه يتزوج بعد نزوله ويولد له ويدفن عند النبي ﷺ» اهـ.

يعني: في الحجرة النبوية مع النبي ﷺ بعد صلاة المسلمين عليه، ويروى عن عبد الله بن عمر ورفعه: «ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ويُدفن معي في قبري، فأقوم أنا وهو من قبر واحد بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[٢]، فاختلف في مدة إقامته في الأرض بعد نزوله آخر الزمان.

فقيل: سبع سنين[٣]، وقيل: أربعين.

ووقع عند أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رفعه: «أنه يمكث في الأرض أربعين سنة»، وهو عند أبي داود والطبراني في «الأوسط»، وقد لا ينافيه حديث ابن عمر إن ثبت بحمله على إلغاء الكسر، وقيل غير ذلك.

ومنها أنه يستدل بقوله: «تقدرون له» على مشروعية تعلم الميقات ليعلم به دخول

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات [٢/ ٣٦٠].

(٢) ذكره ابن الجوزي في الوفاء [٢/ ٥٧٤] وذكره السمهودي في وفاء الوفاء [١/ ٣٩٧] وذكره في المشكاة [٣/ ١٥٢٤ رقم ٥٥٠٨].

(٣) مسلم [رقم ٢٩٤٠] والترمذي [٣/ ٣٤٨ رقم ٢٣٤١] وقال: حديث غريب حسن صحيح.

وقت الظهر مثلاً والأيام الطويلة والقصيرة بالنسبة لغير أيام الدجال بحيث يصليّ صلوات السنة أو الشهر في ذلك اليوم.

ومنها أنه ثبت أن الدجال يخرج من غضبة يغضبها[(١)].

وأنه يخرج عند فتح المسلمين القسطنطينية.

وأنه يخرج من قبل المشرق جزماً، ثم جاء أنه يخرج من خراسان[(٢)] ومن أصبهان[(٣)].

وأول شيء يدعيه الإيمان والصلاح.

فعند ابن السكن من حديث غيلان مولى رسول الله ﷺ قال: «يخرج الدجال فيدعو الناس إلى العدل وإلى الحق فيما يرونه فلا يبقى مؤمن ولا كافر إلا اتبعه وهم لا يعرفونه، فبينما المؤمنون في همٍّ من ذلك إذ خسفت عيناه وظهر بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن، فعند ذلك فارقه المؤمنون واتبعه الكافرون»[(٤)] اهـ.

ثم يدعي النبوة ثم الإلٰهية.

وكان موجوداً في العهد النبوي وأنه محبوس في بعض الجزائر.

قال كعب الأحبار: «يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي ثم يلتمس فلا يقدر عليه، ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة، ثم يطلب فلا يدري أين توجه، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة، ثم يظهر السحر ثم يدعي النبوة فيتفرق عنه الناس فيأتي النهر فيأمره أن يسيل إليه فيسيل ثم يأمره أن يرجع فيرجع ثم يأمره أن ييبس فييبس ويأمر جبل طور سيناء وجبل ذي قا أن ينتطحا فينتطحا ويأمر الريح أن تثير سحاباً من البحر فتمطر الأرض ويخوض البحر في اليوم ثلاث خوضات لا تبلغ حقويه، وإحدى يديه أطول من الأخرى، فيمد الطويلة في البحر فتبلغ قعره فيخرج من الحيتان ما يريد، إلى غير ذلك مما في بسطه طول».

وأما نزول عيسى عليه السلام، فقد تقدم ما يحصل منه غرض السائل.

ومما لم يتقدم قوله في «الصحيح»: «ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه

---

(١) صحيح مسلم [٤/ ٢٢٤٦].

(٢) رواه أحمد في مسنده [١/ ٤ـ٧] والترمذي [رقم ٢٢٣٧] وقال: حسن غريب، وابن ماجه رقم [٤٠٧٢] وصححه أحمد شاكر في المسند [١/ ١٥٩] بتحقيقه.

(٣) رواه أحمد [٣/ ٢٢٤] وفي مسنده [٦/ ٧٥] وابن حبان في صحيحه [٨/ ٢٩٠ رقم ٦٧٨٣ـ الإحسان] وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٣٨].

(٤) الحديث مخرج في الإصابة [٣/ ١٩٢].

فيمسح عن وجوههم»[١].

فذلك إما حقيقة على ظاهره تبريكاً وبرّاً، أو أشار به إلى كشف ما يكونون فيه من الشدة والخوف، ويحدثهم عليه السلام بدرجاتهم في الجنة.

تتمة: صح عن حسان بن عطية أحد ثقات التابعين أنه قال: «لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة»[٢]، فيحتمل رفعه، فإن مثله لا يقال رأياً، ويحتمل أنه أخذه عن بعض أهل الكتاب.

وأما خروج يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وهم من بني آدم عليه السلام[٣]، ثم من بني يافث بن نوح[٤].

ثم قيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الديلم، وقيل: من ولد آدم من غير حوى، وذلك أن آدم نام فاحتلم فامتزجت نطفته بالتراب فخلقوا منها.

ورُدَّ بأن الأنبياء لا يحتلمون، وأجيب بأن المنفي أن يرى النبي في المنام أنه يجامع فيحتلم لا دفق الماء فقط، والأول المعتمد.

وفي «فتاوى النووي» أنهم من ولد آدم لا من حوى عند جماهير العلماء فيكونون إخواننا لأب، قال شيخنا: «ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حوى قطعاً»[٥].

ويروى في المرفوع: «يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حملوا السلاح»[٦].

ومن وجه آخر: «يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفاً من الذرية»[٧].

ومن وجه آخر: «أنهم يجامعون ما شاؤوا ولا يموت الرجل منهم حتى يترك من

---

(١) جزء حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم [رقم ٢٩٣٧] وقد تقدم بعضه.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية [٦/ ٧٧].
(٣) رواه البخاري [٤/ ١٧٦٨] واللفظ له، ومسلم [١/ ٢٠١ رقم ٣٧٩].
(٤) رواه البزار كما في كشف الأستار [١/ ١١٨] رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٦٣] من كلام سعيد بن المسيب وذكره ابن كثير في البداية والنهاية [١/ ١٠٨].
(٥) فتح الباري [١٣/ ١١٤ـ ١١٥].
(٦) رواه الطبراني في الأوسط [٤/ ١٥٥] من حديث حذيفة، وقال الهيثمي في المجمع [٨/ ٦] رواه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف.
(٧) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الموارد [٤٧٠ رقم ١٩٠٧] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ذريته ألفاً فصاعداً»[١].

ويروى في طولهم: «شبراً شبراً فأكبرهم وأطولهم ثلاثة»[٢].

ويروى من الموقوف: «ذهب الناس وبقي النسناس»[٣]، فقيل: هم يأجوج ومأجوج.

وفي حديث للنواس بن سمعان مرفوع: «سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين»[٤].

ففي «الصحيح» أن عيسى عليه السلام «بينما هو كذلك» فيما تقدم «إذ أوحى الله عز وجل إليه: إني قد أخرجت عباداً لا يدان لأحد بقتالهم» بل هم عاجزون عن دفعهم وطردهم «فحرز عبادي إلى الطور» أي: ضمهم فيه واجلعه لهم حرزاً «ويبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون»، «فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربوا ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذا مرة ماء». «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر» بمعجمة وميم مفتوحتين وهو جبل بيت المقدس، يعني: لكثرة شجره فالخمر الشجر الملتف»، «فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم وهو مخضوب دماً، ويُحْصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور»، أي: الحيوان المعروف، والثور أيضاً القطعة من الأقط اللبن الجامد المستحجر «لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم النغف»[٥] بنون ثم معجمة مفتوحة وآخره فاء وهو دود يخرج من أُنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة «في رقابهم فيصبحون فرسى»[٦] بفاء وسين مهملة مفتوحتين، أي: قتلى الواحد فريس وفرس الذئب الشاة وافترسها إذا قتلها «كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاَّ ملأه زهمهم ونتنهم، يعني: أن الأرض تنتن من جيفهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله إليهم طيراً كأعناق البخت» جمال طوال الأعناق «فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم

(١) رواه النسائي في الكبرى [٦/ ٤٠٨] من حديث أوس بن أوس.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٢٧] عن ابن عباس موقوفاً.

(٣) رواه الخطابي في العزلة [ص١٨٢] من طريق أبي داود موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم وغيره وقد تقدم تخريجه وهذه الجملة عند ابن ماجه [٢/ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٦] والترمذي [٣/ ٣٤٨ رقم ٢٣٤١].

(٥) انظر النهاية [٥/ ٨٧].

(٦) انظر النهاية [٣/ ٤٢٨].

يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، أي: بيت مدينة وقرية أو بادية فأهل البوادي يتخذون بيوتهم من وبر الإبل، وأهل القرى والأمصار يبنونها بالمدر الطين ونحوه «فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة» أي: كالمرآة ـ بكسر الميم ـ لصفائها ونظافتها أو الصفحة أو كالروضة أو غير ذلك «ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بِقِحْفِهَا» بكسر القاف شبهها بقحف الرأس وهو ما فوق الدماغ، وقيل: ما انفلق من جمجمته وانفصل «ويبارك في الرسل» بكسر الراء وسكون المهملة، أي: اللبن «حتى إن اللقحة الواحدة» أي: القريبة العهد بالولادة، «لتكفي الفئام» يعني: الجماعة الكثيرة من الناس «واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ» أي: الجماعة من الأقارب «وبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

واختلف في المراد بقوله: يتهارجون، فقيل: يتسافدون، وقيل: يتشاورون، والظاهر ما قال شيخنا أنه بمعنى يتقاتلون، أو أعم من ذلك، ويؤيد حمله على التقاتل تفسير الهرج في الحديث الآخر بالقتل[1]، والله المستعان.

وأما خروج الدابة وخروجها في آخر الزمان من مكة إما من صدع الصفا، وبه جزم غير واحد، أو من المروة، أو من شعب أجياد، أو من بعض أودية تهامة من وراء مكة، أو من مدينة قوم لوط[2].

وتخرج كما في بعض المرفوعات أو الموقوفات ثلاث خرجات من الدهر، فمرة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية، يعني: مكة.

ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج مرة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية، يعني: مكة، قال رسول الله ﷺ: «بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي تربو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعاً وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلت كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى أن الرجل ليعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي، فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار، يعرف

(١) رواه البخاري [٦/ ٢٥٩٠ رقم ٦٦٥٢] ومسلم في العلم باب رفع العلم وقبضه [رقم ١٥٧].
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان [١/ ٣٨ رقم ٢٤٩] رواه أحمد في مسنده [٥/ ٢٦٨].

المؤمن من الكافر، حتى أن المؤمن ليقول: يا كافر اقض حقي، وحتى أن الكافر ليقول: يا مؤمن اقض حقي»[(١)].

وفي رواية عند أحمد: «تخرج دابة الأرض ومعها عصى موسى وخاتم سليمان، فتخطم أنف الكافر بالخاتم وتجلوا وجه المؤمن بالعصى، حتى أن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»[(٢)].

وعن علي رضي الله عنه: «أنها دابة لها ريش وزغب وحافر وما لها ذنب ولها لحية وأنها تخرج حُضر الفرس ـ بمهملة مضمومة ثم معجمة، أي: عدو الفرس الجواد، أي: السابق الجيِّد ـ وما خرج ثلثها».

وفي «النهاية» قيل: طولها ستون ذراعاً ذات قوائم ووبر، وقيل: هي مختلفة الخلقة تشبه عدة من الحيوانات، ينصدع جبل الصفا فتخرج منه ليلة جَمْع والناس سائرون إلى منى.

وقيل: من أرض الطائف، ومعها عصى موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لا يدركها طالب، ولا يعجزها هارب، تضرب المؤمن بالعصى وتكتب في وجهه مؤمن، وتطبع الكافر بالخاتم وتكتب في وجهه كافر[(٣)]. وعن بعض المفسرين: لها خلق عظيم تخرج من صدع في الصفا لا يفوتها أحد، تسم المؤمن فينير وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتسم الكافر فيسود وجهه وتكتب بين عينيه كافر.

وقيل: عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «إنها الجساسة المذكورة في الحديث»[(٤)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنها الثعبان الذي كان في بئر الكعبة فاختطفته العُقاب»[(٥)].

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده كما في المنحة [٢/ ٢٢١] عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً، ورواه الطبراني في الكبير [٣/ ١٩٣ رقم ٣٠٣٥] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٨٤] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. رواه الحاكم في مستدركه [٤/ ٤٨٤] وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند أحمد [٢/ ٢٩٥] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه الترمذي [٥/ ٢١] وقال: حديث حسن، وابن ماجه [٢/ ١٣٥١ رقم ٤٠٦٦] وضعفه الالباني في السلسلة الضعيفة [رقم ١٠٨] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٨٥] وسكت عليه، وكذلك الذهبي، وأبو داود والطيالسي كما في المنحة [٢/ ٢٢١].

(٣) النهاية لابن كثير [٢/ ٩٦].

(٤) حديث الجساسة في مسلم [رقم ٢٩٤٢].

(٥) ذكره القرطبي في التذكرة [٨١٩] وفي تفسيره [١٣/ ٢٣٦] وقال: حكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعن بعض المتأخرين: الأقرب أن يكون إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم فينقطعوا فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة، لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾.

وأما طلوع الشمس من مغربها الذي قيل في حكمته: إن إبراهيم عليه السلام قال لنمروذ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وأن الملحدة والمنجمة عن آخرهم ينكرون ذلك، ويقولون: هو غير كائن؛ فيطلعها الله تعالى من المغرب لِيُرِيَ المنكرين قدرته أن الشمس في ملكه إن شاء أطلعها من المشرق، وإن شاء أطلعها من المغرب[١]، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[٢] [الأنعام:١٥٨].

كما صح في حديث مرفوع جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وكان يقرأ الكتب ـ أنه قال: «إنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فيؤذن لها حتى إذا بدا لله أن تطلع من مغربها وفعلت كما كانت تفعل لم يرد عليها مرة بعد أخرى ثلاثاً حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت: يا رب ما أبعد المشرق من لي بالناس، حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي، فتطلع على الناس من مغربها[٣].

وفي حديث مرفوع: «ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه، فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون فإن أحدهم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام، فبينما هم كذلك ماج الناس بعضهم في بعض فقالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها فضج الناس ضجة واحدة حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها، قال: وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»[٤]، يعني: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فإنه من كان مؤمناً قبل، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة يومئذ لم تقبل توبته وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا﴾ أي: ولا يقبل

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير [٧/١٤٨] وفي التذكرة [٨٢٦].

(٢) رواه البخاري [٨/٥٤١] مختصراً، ورواه مسلم في الإيمان [١/١٣٨ رقم ٢٥٠] واللفظ له.

(٣) رواه أحمد في مسنده [٢/٢٠١] والبزار في كشف الأستار [٤/١٤٥] وابن أبي شيبة في مصنفه [١٥/٦٧] وعبد بن حميد في المنتخب [رقم ٣٢٦] والحاكم في المستدرك [٤/٥٤٧] وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) ذكره السيوطي في الدرر المنثور [٣/٣٩٢] وابن كثير في تفسيره [٢/١٩٤].

منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما استثناء من كان صغيراً يومئذ، فإنه لو أسلم بعده قبل منه، وكذا من كان مذنباً وتاب من الذنب فإنه يقبل منه[١].

قال القرطبي بعد الحكاية عن الملحدة لإنكاره: «فعلى هذا يحتمل أن يكون رد التوبة والإيمان على من آمن وتاب من المنكرين المكذبين خاصة، فأما المصدقون فإنه تقبل توبتهم وينفعهم إيمانهم قبل»[٢].

قال ابن كثير: «وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب وقت القيامة وظهور أشراطها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وربما يستأنس له بما قيل مما هو غريب: «أن الدابة تقتل إبليس»، وبما قيل مما رفع وهو أيضاً غريب: «أنه إذا طلعت الشمس من مغربها يخر ساجداً وينادي جهراً: إلٰهي امرني أن أسجد لمن شئت، فيجتمع إليه زبانيته فيقولون: يا سيدهم ما هذا التضرع؟ فيقول: أنا قد سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم، قال: ثم تخرج الدابة من صدع في الصفا، قال: فإذا خطوة تضعها في أنطاكية فتأتي إبليس فتلطمه»[٣].

وما يروى في التقاء شيخين فيقول أحدهما لصاحبه: متى ولدت؟[٤] فيقول: لما طلعت الشمس من مغربها[٥]، غير صحيح.

كالذي يروى عن ابن عمر: «أنه يبقى الناس بعد طلوعها من مغربها مائة وعشرين سنة حتى تغرسوا النخل»[٦].

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير [٧/ ١٤٨] وفي التذكرة [٨٢٧].
(٢) تفسير القرطبي [٧/ ١٤٨].
(٣) تفسير ابن كثير [٢/ ١٩٥].
(٤) رواه الطبراني في الأوسط [١/ ٣٦] عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وذكره الهيثمي في المجمع [٨/ ٨]. وقال فيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق وهو ضعيف. وذكره السيوطي في الدر المنثور [٣/ ٤٠٠] وعزاه للطبراني وابن مردويه.
(٥) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في بغية الباحث [٢/ ٧٩٠] وذكره السيوطي في الدر المنثور [٣/ ٣٩٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه وعزاه لعبد بن حميد.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور [٣/ ٣٩١] وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

وإن صح ذلك يحتاج إلى تأويل.

وبالجملة، فالوارد في كون أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة مع صحته لا ينافي الوارد في كون أولها الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج لحمله فيها على الأمور المألوفة؛ لأنه شيء مشاهد بخلافه فيهما فليس بمألوف بل هو مخالف للعادات المستقرة، أي: خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ومخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان والكفر أمر خارج عن مجاري العادات وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية، فهما أول بهذا التأويل وآخر على الإطلاق، كما مشى عليه الحاكم وأقره تلميذه البيهقي ناصر السنة، ثم جنح إليه ابن كثير، ووقوعها مترادفة كالحامل المتم التي شارفت الوضع.

قال شيخنا: والذي ترجح من مجموع الأخبار أن أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض تنتهي بموت عيسى، وأن طلوع الشمس من المغرب أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، فلعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب، وقد ثبت أنهما ـ أعني طلوع الشمس وخروج الدابة ـ ضحى أول الآيات فأيهما خرج قبل فالآخر منه قريب.

قال الحاكم: والذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة ذلك اليوم أو الذي يقرب منه.

قال شيخنا: والحكمة فيه أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة[1]، وتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة[2].

وأما قوله ﷺ: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»[3]، فقد جاء في حديث عند مسلم: أنها آخر الآيات، ولفظه: «اطَّلع النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذكرون؟ فقالوا: نذكر الساعة، فقال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف

---

(١) رواه مسلم [٤/ ٢٢١١٣ رقم ٢٧٥٩] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر فتح الباري [١١/ ٣٥٣ـ ٣٥٥].

(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء [٣/ ١٢١١ رقم ٣١٥١] عن أنس رضي الله عنه.

بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر»(١).

ويجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوليتها بأنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور بخلاف ما ذكر معها فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا.

وفي «الصحيح»: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»(٢).

قال القاضي عياض: «والحشر في الدنيا قبل قيام الساعة وهو آخر أشراطها».

ويروى عن كعب الأحبار قال: «تخرج نار تحشر الناس فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام»(٣).

وهو موضح أخرى لفظها: «تطرد الناس إلى محشرهم»(٤) فالمراد به الشام؛ لأن بها يحشر الناس ليوم القيامة.

ومنه حديث ابن عمر: «فهلا إلى الشام أرض المنشر»(٥).

أي: موضع النشور، وهي الأرض المقدسة من الشام يحشر الله الموتى إليها يوم القيامة وهي أرض المحشر، وعند خروج النار يقل حينئذ الظهر وتباع الحديقة بالبعير الواحد لكثرة المفتقرين إليه، ولا يلتفت حينئذ إلى ما ينقله من المال، بل يقصد نجاة نفسه ومن يقدر عليه من ولده وأهله، بخلاف طروق غيرها من الفتن كالدجال، فإنه لا يلوي فيها عن الأهل فضلاً عن المال. وأما عند حصول الأمن المفرط، وذلك في زمن المهدي وعيسى عليه السلام، فحين يستغني كل أحد بما عنده عما في يد غيره.

ثم إن هذه النار ليست النار التي ظهرت بنواحي المدينة في سنة أربع وخمسين وستمائة.

---

(١) رواه مسلم [٤/ ٢٢٢٥ـ ٢٢٢٦ رقم ٢٩٠١] عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الرقاق [١١/ ٣٧٧ رقم ٦٥٢٢ـ الفتح] ورواه مسلم [٤/ ٢١٩٥ رقم ٢٨٦١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف [١٥/ ١١٦] وأبو عمرو الداني في الفتن [٥/ ٩٩٧ـ ٩٩٨، رقم ٥٣٤] من كلام كعب الأحبار.

(٤) قطعه من حديث عند مسلم برقم [٢٩٠١].

(٥) رواه الترمذي [٥/ ٣٧٧ رقم ٤٠١٠] وقال: هذا حديث صحيح غريب، «صحيح مسلم» رقم (١٣٧٧).

وقال النووي: تواتر العلم بخروجها عند جميع أهل الشام.

وكالتي كانت نحوها في بعض بلاد الحجاز في الجاهلية زمن الجاهلية زمن خالد بن سنان وقام بها حتى أخمدها، بل وقعت بالمدينة في عصرنا.

وبعد موت عيسى عليه السلام تهب ريح فتقبض أرواح المؤمنين كما تقدم في أواخر الكلام على خروج يأجوج ومأجوج مع أنه لم يقع الإفصاح هناك بكونه بعد موته ثم إنه لم يعين جهة مجيء الريح وقد ثبت في «الصحيح»: «أن الله تعالى يبعث ريحاً من اليمن»[(١)].

وفي رواية: «من قبل الشام»[(٢)].

فإن في حديث: «يخرج الدجال في أُمتي فيبعث الله عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير من إيمان إلا قبضته»، وفيه: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ـ يعني بخفة الطير: مسارعتهم وخفتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات كطيران الطير، وكأحلام السباع، أي: في الإفساد والعدوان في خلق السباع العادية ـ لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم ينفخ في الصور ـ ولا مانع من المجيء منهما معاً أو يكون ابتداؤها من أحد الإقليمين ثم تجيء من الآخر ويتصل ذلك وينتشر وتلك الريح ألين من الحرير ـ فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته».

قال النووي: وفي معناه أحاديث منها: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»[(٣)].

وفي لفظ: «لا تقوم على أحد يقول الله».

وفي لفظ: «لا تقوم إلا على شرار الخلق»[(٤)].

قلت: وفي لفظ: «إلا على حثالة الناس»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه [١/ ١٠٩] من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) مسلم [٤/ ٢٢٥٨ـ ٢٢٥٩] من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه مسلم في الأيمان [١/ ١٣١ رقم ١٤٨] من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٦٨ رقم ٢٩٤٩] من حديث عبد الله بن مسعود، ورواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٥٦] موقوفاً على عبد الله بن عمرو وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٥) رواه أحمد في مسنده [٣/ ٤٩٩] من حديث علباء السلمي رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٩٥ـ ٤٩٦] وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير [١٨/ ٨٤] وذكره الهيثمي في المجمع [٨/ ١٣] وقال: رجاله ثقات.

وفي رواية: «لا تقوم على مؤمن»(١).

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً»(٢).

يعني بالشريطة: أهل الخير والدين، والأشراط من الأضداد، يقع على الأشراف والأراذل وبالعجاج الغوغاء الأراذل ومن لا خير فيه، واحدهم عجاجة.

ثم قال النووي تلو كلامه: «وكلها وما في معناها على ظاهرها»، وأما الحديث الآخر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة»(٣) حتى يأتي أمر الله، فليس مخالفاً لها؛ لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراطها، فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها ودنوها المتناهي في القرب»(٤).

وقريب منه قول شيخنا: أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتي بعد وقوع الآيات العظام التي تعقبها قيام الساعة ولا يتخلف عنها إلا شيئاً يسيراً فيكون الظهور قبل هبوبها، فأما ما بعده فلا يبقى إلا الشرار وليس فيهم مؤمن فعليهم تقوم الساعة.

وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح، ولعل هذا هو الوقت المشار إليه بقوله: «لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى عبادة الأوثان من دون الله تعالى»(٥).

وفي لفظ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، إن الله يبعث ريحاً طيبة فيتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»(٦).

---

(١) رواه أبو يعلى كما في المطالب النسخة المسندة رقم [٥٠٧٠] وفي إسناده موسى بن مطر وهو ضعيف.

(٢) رواه أحمد في مسنده [٢/ ٢١٠] من طريق الحسن البصري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. ورواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٣٥] وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله بن عمرو ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع [٨/ ١٣] وقال: رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) رواه مسلم [٣/ ١٥٢٤ رقم ١٩٢٣].

(٤) شرح النووي على مسلم [٢/ ١٣٢].

(٥) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه كما في المنحة [٢١٣].

(٦) رواه مسلم [٤/ ٢٢٣٠ رقم ٢٩٠٧] عن عائشة رضي الله عنها.

ونحوه: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات ـ أي: أعجاز ـ نساء دوس على ذي الخلصة»(١).

يعني: صنم دوس التي كانت تعبده في الجاهلية.

وفي لفظ: «لا تقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة»(٢).

على أن ابن بطال قال فيه وما أشبهه: ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء؛ لأنه ثبت أن الإسلام إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف ويعود غريباً كما بدأ، وجنح إلى أن الطائفة التي تبقى على الحق تكون ببيت المقدس، وقال: فبهذا تأتلف الأخبار.

يعني: حيث حملها في الطرفين على ما قال.

ونازعه شيخنا بأنه ليس فيما احتج به تصريح ببقاء أولئك إلى قيام الساعة وإنما فيه حتى يأتي أمر الله فيحتمل أن يكون المراد بأمر الله ما ذكر من قبض من بقي من المؤمنين، يعني: كما سلف، فظواهر الأخبار تقتضي أن الموصوفين بكونهم ببيت المقدس أن آخرهم كان مع عيسى عليه السلام ثم إذا بعث الله الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الناس.

وقد ثبت: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام.

وثبت: «أن الآيات العظام مثل (السلك) إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة».

بل قيل كما في مرسل لأبي العالية: «إن بين أول الآيات وآخرها ستة أشهر تتابعن كتتابع الخرزات في النظام»(٣).

وفي موقوف عن أبي هريرة: «أنها ثمانية أشهر»(٤).

---

(١) رواه البخاري [١٣/ ٧٦ـ الفتح] ومسلم [رقم ٢٩٠٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٠٥] وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف [١٥/ ١٨٢] من كلام أبي العالية.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [١٥/ ١٨٢] وفي إسناده أبو المهزم وهو متروك.

ويشهد لتواليها: «الآيات خرزات منظومات في سلك إذا انقطع السلك تبع بعضها بعضاً»(١).

وفي رواية: «بين يدي الساعة عشر آيات كالنظم في الخيط إذا سقط منها واحدة توالت».

وبهذا كله يستدل على عدم صحة رفع «يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة».

ولكن يمكن الجواب بأنها تمر مرّاً سريعاً كمقدار مرورها أشهراً قبل ذلك.

فقد صح في المرفوع: «لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشهر، وفيه: واليوم كاحتراق السعفة»(٢).

وإليه الإشارة في بعض الروايات: «يتقارب الزمان وتنقص المنون».

إذا علم هذا، فالوارد في أشراط الساعة وعلاماتها كثير، ومنه ما هو محتج به، ومنه ما لعله يأتي هنا أو لا يثبت مما أرجو التفرغ له وتمييز مراتبه.

كظهور الفتن التي كان ابتداؤها قتل أمير المؤمنين عمر ثم عثمان ثم الحسين وما وقع في الحرة وصفين والجمل.

وغيرها مما لشرحه أماكن، والمراد كثرتها واشتهارها وعدم التكاتم بها مما يؤثر في أمر الدين.

وفي لفظ: «أنه ﷺ ذكر فتنة عظمها تكون في الأمة بين يدي الساعة»(٣).

ومن أسباب الفتنة: بسط الدنيا والتنافس فيها(٤).

والنساء لقوله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»(٥).

ومنع الأُمراء إعطاء الحقوق وإقرار القراء الأمراء في غيهم، ولكن تحصل السلامة مع توفيق الله بالصبر والأخذ لما بذل والترك لما منع.

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٢/ ٢١٩] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٢٠] ورواه ابن حبان [١٥/ ٢٤٨] والطبراني في الأوسط [٤/ ٣٠٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٢١].

(٢) رواه أحمد في مسنده [٢/ ٥٣٧] وابن حبان في صحيحه [٨/ ٢٩٨] وأبو يعلى رقم (٦٦٨٠).

(٣) رواه أبو داود [٤/ ١٠٥] وابن أبي شيبة [٧/ ٤٥٠] وغيرهما.

(٤) رواه البخاري في المغازي [٧/ ٣٢٠ رقم ٤٠١٥ـ الفتح]، ومسلم [٤/ ٢٢٧٣، ٢٢٧٤ رقم ٢٩٦١].

(٥) رواه البخاري [٩/ ١٣٧ رقم ٥٠٩٦] ومسلم [٤/ ٢٠٩٧ رقم ٢٧٤٠] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وكذا من أسبابها ظهور الفاحشة الذي هو السبب في فشو الطاعون والأوجاع.

ونقص المكيال والميزان الذي هو سبب للسنين، أي: القحط وشدة المؤنة وجور السلطان.

ومنع الزكاة الذي هو سبب في منع القطر ولولا البهائم لم تمطروا.

ونقض عهد الله ورسوله الذي هو السبب في تسليط العدو وأخذ ما بالأيدي، إلى غيرها من الأسباب.

قال عطاء الخرساني: «إذا كان خمس كان خمس إذا أكل الربا فالخسف والزلزلة، وإذا جار الحكم فقحط المطر، وإذا ظهر الزنى فكثرة الموت، وإذا منعت الزكاة فهلاك الماشية، وإذا تعدي على أهل الذمة فالدولة»(١).

وأما خروج المهدي فهو قبل نزول عيسى كما هو الأظهر أو بعده، ولا ينافيه كون المهدي الأعظم هو عيسى(٢).

وثبت «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي»(٣).

وفي رواية: «في أمتي المهدي يخرج فيعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً ـ شك راويه ـ قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين، فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني أعطني، قال: فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»(٤).

ولجمع من الحفاظ ومنهم العماد بن كثير في المهدي تأليف.

قال أبو الحسن الآبري: قد تواترت الأخبار واستفاضت وكثرت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروجه وأنه من أهل بيته وأنه يملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية [٥/ ١٩٩ـ ٢٠٠] عنه بسند ضعيف.

(٢) رواه ابن ماجه [٢/ ١٣٤٠ـ ١٣٤١] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤١] وضعفه، ووافقه الذهبي ورواه أبو عمرو الداني في الفتن [٣/ ٥٢١] وابن الجوزي في العلل [٢/ ٣٧٩ـ ٣٨٠] وضعفه، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم [٧٧].

(٣) رواه أحمد في مسنده [١/ ٣٧٧] وأبو داود [٤/ ٤٨٣] والترمذي [٤/ ٣٨] وقال: حسن صحيح، وابن حبان [٧/ ٥٧٦] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤٢] وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. انظر صحيح الجامع [٧٢٧٥].

(٤) رواه الترمذي [٤/ ٤٣٩] وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري، وابن ماجه [٢/ ١٣٦٦ـ ١٣٦٧] والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٥٨] وابن أبي شيبة [١٥/ ١٩٦] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٤٠٨٣].

وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه. انتهى.

وحينئذ فقوله في حديث آخر: «لا مهدي إلا عيسى» أي: لا مهدي كاملاً معصوماً.

وعبادة الأوثان من اللات والعزى وذي الخلصة كما تقدم.

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أُمتي بالمشركين»(١).

وكثرة خصومات الناس في ربهم وعدم التوجه بذكر الله وشكره وشدة غضب الله لذلك(٢). وتقوم الساعة والخوض في ما يؤدي إلى أمر عظيم بحيث يروى: «لا تقوم الساعة حتى يكفر بالله جهراً»، وذلك عند كلامهم في ربهم(٣) وتصديق بالنجوم وتكذيب بالقدر(٤)، وزوال جبال عن أمكانها(٥).

وكثرة الزلازل(٦) والصواعق(٧)، وكأن المراد بكثرتها شمولها ودوامها.

ففي حديث: «وبين يدي الساعة سنوات الزلازل»(٨).

وفي آخر: «وتكثر الصواعق عند اقتراب الساعة».

وإلا فقد وقعت الزلازل الكثيرة بعراق العجم، والقليل منها بالأندلس وغيرها.

ومشاهدة أمور عظام لم يحدث بها المرء نفسه بحيث يسأل أكان النبي ﷺ ذكر لكم منها ذكراً.

وظهور أهل المنكر على أهل المعروف(٩).

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ٢٧٨ـ ٢٤٨] عن ثوبان رضي الله عنه، ورواه أبو داود [٤/ ٤٥١ـ ٤٥٢] وابن ماجه [٢/ ١٣٠٤]، والحاكم في المستدرك [٢/ ٤٤٩] وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وفي النهج السديد [ص١٢٩] قال: صحيح على شرط مسلم، ورواه مسلم مختصراً بدون ذكر الشاهد [٤/ ٢٢١٥ـ ٢٢١٦].

(٢) مسند الفردوس رقم [٧٥٥٥].

(٣) رواه الطبراني في الأوسط [٤/ ١٥٠] بسند ضعيف جداً، والحاكم في تاريخه كما في الكنز [١/ ٢٣٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البزار كما في الكشف [٤/ ١٤٧] انظر السلسلة الصحيحة [رقم ١١٢٧].

(٥) رواه أحمد [٥/ ١٦ـ ١٧] وابن خزيمة في صحيحه [٢/ ٣٢٥] وابن حبان [٤/ ٢٢٢ـ ٢٢٥] والحاكم في مستدركه [١/ ٣٢٩ـ ٣٣٠] وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٦) رواه البخاري [١٣/ ٨١ـ ٨٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) رواه أحمد [٣/ ٩٤] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤٤] وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على صحته فقط.

(٨) رواه أحمد في المسند [٤/ ١٠٤] من حديث سلمة بن نفيل السكوني رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤٨] وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٩) رواه أبو نعيم في الحلية [٣/ ٣٥٨] وإسناده ضعيف جداً، انظر السلسلة الضعيفة رقم [١١٧١].

وخروج دجالين كذابين حصروا في رواية ثلاثين أو أزيد[١].

وخروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه[٢].

ولا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له الجهجاه[٣].

والدخان كما وقع قديماً[٤].

والنار كما تقدم.

واجتراء الصغير على الكبير واللئيم على الكريم»[٥].

ويروى: «ارحموا ثلاثة وذكر عالماً يتلاعب به الصبيان»[٦].

وخسوف ثلاثة بالمشرق والمغرب وجزيرة العرب.

والخسف إن وجد في مواضع من العجم والمغرب وغيرهما وهلك بسببه خلق كثيرون فيحتمل أن يكون المراد بالثلاثة قدراً زائداً على ما وجد كأن يكون أعظم منه قدراً أو مكاناً.

وفي حديث آخر: «والذي بعثني بالحق نبيّاً لا تنقضي الدنيا حتى يقع بأهلها الخسف والقذف والمسخ، قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا رأيت النساء ركبن السروج وكثرت القينات وفشت شهادات الزور واستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء»[٧].

واقتفاء الأمم قبلها في ما لا يجمل.

وفي «الصحيح»: «لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ سلكتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[٨].

وفي حديث آخر: «لتركبن سنن من كان قبلكم حتى لو أن أحدهم ضاجع أُمه في

---

(١) رواه البخاري [١٢/ ٨١ـ ٨٢ـ الفتح] ورواه مسلم مختصراً على موضع الشاهد [٤/ ٢٢٤٠] ومسند أحمد [٢/ ٤٥٠] وأبو داود [٤/ ١٢١].

(٢) رواه البخاري «الفتح» [١٣/ ٧٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه ومسلم [٤/ ٢٢٣٢ رقم ٢٩١٠].

(٣) رواه مسلم [٤/ ٢٢٣٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري [٨/ ٥٧٣ـ الفتح] ورواه مسلم رقم [٢٩٠١].

(٥) رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين [٧/ ٢٩٥].

(٦) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (رقم ٤٦٥ـ ٤٦٦).

(٧) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٣٧] وسكت عليه، ورواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين [٧/ ٢٩٨] والبزار كما في كشف الأستار [٤/ ١٤٦].

(٨) رواه البخاري في صحيحه [١٣/ ٣٠٠ـ الفتح] ومسلم [٤/ ٢٠٥٤] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

الطريق لفعلتم»[١].

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمتي بأخذ القرون قبلها»[٢]، الحديث.

ولعن آخر الأمة أولها[٣].

وتناكر الناس وتختلف قلوبهم وأقوالهم، والتظاهر بالمآخاة المعبر عنه بإخوان العلانية أعداء السريرة مما سببه رغبة بعضهم إلى بعض ورهبة بعضهم من بعض[٤].

وفي رواية: «يتواصل الناس بألسنتهم ويتباعدون بقلوبهم وإذا فعلوا ذلك طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم»[٥].

إذ المأمور به ما أوصى به بعضهم بعض أقربائه بقوله: «خالص المؤمن وخالق الفاجر فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن والمؤمن يحق عليك أن تخالصه»[٦]، ومما قيل قديماً:

ألا رب هل تدعو صديقاً وهل ترى   مقالته بالغيب ساءك ما يفري

مقالته كالشهد ما كان شاهداً   وبالغيب باتور على ثغرة النحر

يسرك باديه وتحت أديمه   تميمة غش تبتري عقب الظهر

تبين لك العينان ما هو كاتم   من الغل والبغضاء والنظر الشزر

فرشني بخير طال ما قد برتني   وخير الموالي من يريش ولا يبري

وتسليم الخاصة[٧]، أي: يخص من يختاره للسلام عليه إما لوجاهة أو نحوها من رغبة أو رهبة.

وفي لفظ: «وأن يسلم الرجل على الرجل بالمعرفة»[٨].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٥٥] عن ابن عباس مرفوعاً وصححه ووافقه الذهبي والدولابي في الكنى [٢/ ٣٠] وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة [١٣٤٨] وصححه.

(٢) رواه البخاري في الصحيح [١٣/ ٣٠٠ـ الفتح] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) رواه الترمذي [٣/ ٣٣٤] وقال: هذا حديث غريب.

(٤) رواه أحمد في مسنده [٥/ ٢٣٥] والطبراني [٢٠/ ٣٢] والبزار كما في الكشف [٤/ ١٠٥] وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٢٨٦].

(٥) رواه الطبراني في الكبير [٦/ ٣٢٣ رقم ٦١٧٠] وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٢٨٧].

(٦) روى أبو نعيم في الحلية [١/ ٢٨٠] عن حذيفة نحوه وذكر نحوه العجلوني في كشف الخفاء [١/ ٢٢٦] عن علي وابن مسعود وعزاه الطبراني وأبي الشيخ.

(٧) رواه أحمد في مسنده [١/ ٤٠٧ـ ٤٠٨] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤٥ـ ٤٤٦].

(٨) مسند أحمد [رقم ٣٦٦٤].

يعني: غير عامل بسنية السلام على من عرف ومن لم يعرف[١].

ونقص العلم[٢].

وفي لفظ: «ويقل العلم»[٣].

وفي رواية: «قبض العلم»[٤].

وفي لفظ: «ينزل الجهل ويرفع العلم»[٥].

وفي رواية: «ويظهر الجهل».

وفي رواية أخرى: «يكثر الجهل»[٦] والتعبير بقبض أو رفع فيه إشارة إلى أن المراد أنه لا يبقى إلا الجهل الصرف ولكن ذلك لا يمنع من وجود طائفة من أهل العلم لأنهم يكونون مغمورين في أولئك.

ويتأيد بحديث: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ويسري على الكتاب في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إلٰه إلا الله، فنحن نقولها، وفيه قول صلة لحذيفة صحابيه: ما تغني عنهم لا إلٰه إلا الله وهم لا يدرون ما ذكر وأنه أعرض عنه حتى كرر القول عليه ثلاثاً، ثم قال له حذيفة في الثالثة: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً»[٧].

وأما قوله: «ويسري على الكتاب» فجاء بلفظ آخر وهو: «لينزعن القرآن من بين أظهركم يسري عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»[٨].

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء» الحديث، وفيه:

---

(١) رواه البخاري في الصحيح [١/ ١٣ رقم ١٢] ومسلم رقم [٣٩].
(٢) رواه البخاري [١٣/ ١٤ـ الفتح]، ومسلم [٤/ ٢٠٥٧].
(٣) رواه البخاري مرفوعاً [١/ ٤٣] ومسلم [٤/ ٢٠٥٦ رقم ٢٦٧١].
(٤) مسلم من حديث أبي هريرة [٤/ ٢٠٧ رقم ١٥٧].
(٥) البخاري [١٣/ ١٤] ومسلم [٤/ ٢٠٥٦].
(٦) ابن حبان في صحيحه [٨/ ٢٧٠ رقم ٦٧٣٠] عن حديث أنس رضي الله عنه، رواه البخاري [١/ ١٧٨، رقم ٨٠ـ الفتح] ومسلم في العلم [٤/ ٢٠٥٦ رقم ٢٦٧١].
(٧) رواه ابن ماجه [٢/ ١٣٤٤ رقم ٤٠٤٩] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٧٣] وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٨) رواه عبد الرزاق في المصنف [٣/ ٣٦٢ رقم ٥٩٨٠] ومن طريقه رواه الطبراني في الكبير [٩/ ١٥٣ رقم ٨٦٩٨] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وذكره ابن حجر في الفتح [١٣/ ١٦] وصححه موقوفاً على ابن مسعود.

«منك خرجت وإليك أعود»[١].

وفي رواية: «حتى يعج القرآن إلى الله عز وجل ويقول: إني أتلى ولا يعمل بي، فعند ذلك يرفع».

وفي لفظ: «يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة واحدة ويرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية»[٢].

والصحيح أن هذا وخراب البيت إنما يكون بعد موت عيسى عليه السلام، وعلى كل حال فهو معارض في الظاهر بما حصل الجمع به بينهما حسب ما بين في محله.

وظهور القلم بالقاف، أي: الكتابة، وسيأتي قول الحسن: لقد أتى علينا زمان يقال: كاتب بني فلان ما في الحي غير الكاتب الواحد.

وموت النبي ﷺ كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي[٣].

وكذا فتح بيت المقدس، وقد وقع زمن عمر في سنة ست عشرة، وتمنى رؤية النبي ﷺ، ففي «الصحيح»: «والذي نفسي بيده ليأتين على أحدكم يوم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله»[٤].

والتماس رجل من الأمة كما تلتمس الضالة فلا يوجد[٥].

ويرفع الذكر والقرآن.

والتماس العلم عند الأصاغر فلا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم فإذا أخذوه عن أصاغرهم هلكوا[٦].

وتعلم العلم لغير الله وفشوه وإظهاره بحيث يكثر المتسمى به ويقل الفقيه حقيقة[٧].

---

(١) رواه الديلمي كما في الكنز [١٤/ ٢٣٣] عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) رواه الدارمي في سننه [٢/ ٣١٥ رقم ٣٣٤٤].

(٣) رواه البخاري [٦/ ٢٧٧ رقم ٣١٧٦ـ الفتح].

(٤) رواه مسلم [٤/ ١٨٣٦ رقم ٢٣٦٤].

(٥) رواه أحمد في مسنده [١/ ٩٣] رواه مسلم [رقم ٢٥٣١]، رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٩٥] وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) رواه الطبراني في الكبير [٢٢/ ٣٦٢] والأوسط [٨/ ١١٦] ورواه معمر في جامعه [٢٠٤٤٦] والطبراني في الكبير [٩/ ١٢٠].

(٧) رواه أحمد في مسنده [٥/ ١٥٥] والطبراني في الكبير [٣/ ١٩٧ رقم ١٣١١] ورواه البخاري [١/ ١٩٤ـ الفتح] ورواه الدارمي [١/ ٦٤] والحاكم [٤/ ٥١٤] وصححه الذهبي على شرطهما.

وقول: من أقرأ منا، من أعلم منا.

وكثرة الخطباء، ويكون العالم ـ أي: بالاسم ـ كالنسناس[١]، يعني: لا يثبت ولا يستقر على حاله.

ويروى عن فاطمة بنت الخطاب مرفوعاً: «لا تزال أُمتي بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا في علماء فساق وقراء جهال وجبابرة فإذا ظهر ذلك خشيت أن يعمهم الله بعقاب»، رواه الواقدي.

والسؤال عما ما لم يكن[٢].

ومشي إبليس في الأسواق يتشبه بالعلماء يقول: حدثني فلان ابن فلان عن رسول الله ﷺ بكذا.

وفي مقدمة «صحيح مسلم» عن ابن مسعود، قال: «إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث»[٣].

وخروج شياطين من البحر أوثقهم سليمان عليه السلام.

وفي مقدمة «صحيح مسلم» أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً»[٤].

ويروى: «إذا كان في آخر الزمان تجيء النساء من كل زاوية فيجلسن ويقلن: حدثنا وأخبرنا، فإذا رأيتم ذلك فبددوا جمعهن»[٥].

وخزن العمل، يعني: تركه[٦].

وتقارب الزمن في حديث أوله: «يقبض العلم ويقرب الزمن».

ومعناه: يقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر لغلبة الفسق وظهور أهله. قاله ابن بطال.

---

(١) روى الديلمي في مسنده [٥/ ٨١ رقم ٧٥١٨] عن أنس بن مالك مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري [رقم ٧٢٨٨] ومسلم رقم [١٣٣٧].

(٣) صحيح مسلم [١/ ١٢ رقم ٧٨].

(٤) صحيح مسلم [١/ ١٢].

(٥) رواه الديلمي في مسند الفردوس [١/ ٢٥٦] عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٥٤] وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٢٦] وقال: رواه الطبراني ورجاله موثوقون.

ويشير إليه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»، أي: الناس يتشبهون بندمائهم لا بآبائهم فمن أهانه الزمان أهانوه ومن أعانه أعانوه.

وقول كعب الأحبار رحمه الله: «إن لكل زمان ملكاً يبعثه الله على نحو قلوب أهله فإذا أراد صلاحهم بعث الله فيهم مصلحاً، وإذا أراد هلكتهم بعث فيهم مترفيهم»[(١)].

وجاء في الحديث: «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا فإذا تساووا هلكوا»[(٢)].

يعني: لا يزالون بخير ما كان فيهم أهل فضل وصلاح وخوف لله تعالى يلجأ إليهم عند الشدائد ويستشفى بآرائهم ويتبرك بدعائهم ويؤخذ بتقويمهم وآثارهم وآرائهم.

وقال الطحاوي: قد يكون معناه في ترك طلب العلم خاصة والرضى بالجهل وذلك لأن الناس لا يتساوون في العلم بل درج العلم تتفاوت كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] وإنما يتساوون إذا كانوا جهالاً.

قال شيخنا: وكأنه يريد غلبة الجهل وكثرته بحيث ينقص العلم بفقد العلماء. على أن الخطابي ذكر في تقارب الزمن: أن تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة كما في الحديث الماضي.

والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمن، وذلك من علامة قرب الساعة، يعني: مما هو محسوس الآن.

وارتفاع الأصوات في المساجد[(٣)].

ويتباهون فيها ولا يعمرونها إلا قليلاً[(٤)].

وزخرفة المساجد، وفي لفظ: المحاريب وخراب القلوب[(٥)].

واتخاذ المساجد طرقاً.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية [٦/ ٣٠] عن سميط السدوسي عن كعب الأحبار.

(٢) رواه البيهقي في الشعب [٦/ ٥٠٦]. وذكره ابن حجر في فتح الباري [١٣/ ١٦] ولم يعزه لأحد.

(٣) رواه الترمذي [٣/ ٣٣٤] وقال: حديث غريب.

(٤) رواه أحمد في المسند [٣/ ١٣٤] وأبو داود [١/ ١٢٣ رقم ٤٤٩] والنسائي [٢/ ٣٢] وابن ماجه [١/ ٢٤٤ رقم ٧٣٩] وإسناده صحيح، ورواه أبو يعلى [٣/ ١٩٧] وابن خزيمة في صحيحه [١/ ٢٨٢].

(٥) رواه الطبراني في تفسيره [١/ ٢٢٩ـ ٢٣٠] وإسناده ضعيف، وروى الديلمي كما في كنز العمال [١٤/ ٥٧٣].

وغلو أهل الفسق فيها[(١)].

واتخاذ القرآن مزامير يقدمون من يغنيهم به وإن كان أقلهم فقهاً[(٢)].

وتدافع أهل المسجد في من يصلي بهم فلا يجدون أحداً[(٣)].

وانفصال الخمسين من الصلاة ولا يقبل الواحد منه[(٤)].

وكثرة موت الفجأة المعبر عنه في بعض الأخبار بموت الرجل بغير وجع[(٥)].

ويكون في الناس مُوتان كقُعاس الغنم.

فالمُوتان بوزن البُطلان الموت الكثير الوقوع.

والقُعاس بالضم داء يأخذ الغنم لا يُلبثها أن تموت.

وكان ابتداء ذلك طاعون عمواس[(٦)].

وتمني الموت حتى إن الرجل يمر بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانك، ليس به الدين إلا البلاء[(٧)].

ومن أسباب تمنيه كون الشرار من الناس الأمراء والأشحاء منهم الأغنياء.

ففي الحديث: «إذا كانت أُمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها وعكسه عكسه»[(٨)].

وهلاك العرب[(٩)].

ونقص الثمرات وكثرة المطر وقلة النبات.

بل يروى عن كعب الأحبار أنه قال لابن الزبير وهو يبني البيت: «اشدده وأوثقه

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية [٥/ ١٨٨].

(٢) رواه أحمد [٣/ ٤٩٤] والطبراني [١٨/ ٣٤] والبزار في التاريخ الكبير [٤/ ١/ ٨] وصححه الألباني كما في صحيح الجامع [٢٨١٢].

(٣) رواه أحمد في المسند [٦/ ٣٨١] وأبو داود [١/ ٣٩٠] والالباني كما في ضعيف الجامع [١٩٨٧] وابن ماجه [١/ ٣١٤] وضعفه.

(٤) روى أبو الشيخ في الفتن كما في الكنز [١٤/ ٢١١] عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط [٩/ ١٤٧] والصغير [٢/ ٢٦١] وسنده ضعيف.

(٦) انظر النهاية لابن الأثير [٤/ ٣٧٠] وفتح الباري [٦/ ٣٢١] والمستدرك للحاكم [٤/ ٤٢٣ـ ٤٢٤].

(٧) روى مسلم في صحيحه [٤/ ٢٢٣١].

(٨) رواه الترمذي [٣/ ٣٦١] وقال: حديث غريب، ورواه أبو نعيم في الحلية [٦/ ١٧٦] وضعفه الألباني في ضعيف الجامع [٦٧٦].

(٩) رواه أحمد [٢/ ٥١٣] والبزار [رقم ٣٣٣٠].

فإنا نجد في الكتب أن السيول ستعظم في آخر الزمان».

وكون المطر قيظاً، أي: في شدة الحر إذ المطر إنما يراد للنبات وبرد الهواء.

ويروى: «لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً لا تكن منه بيوت المدر ولا تكن منه إلا بيوت الشعر»(١).

ويروى أيضاً: «إذا كان الشتاء قيظاً وغاض الكرام غيضاً»(٢)، أي: فنوا وبادوا.

والريح الحمراء، أي: الشديدة، كقولهم: سنة حمراء، ورد في علاماتها ريح تلقي الناس في البحر.

وكون الأيام والليالي لا تذهب حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً(٣).

وحتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب فيقتتلون عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون وينجو واحد(٤).

ومعناه: أن العرب تتقاعد عن الانتجاع لطلب الغيث ويشتغل كل منهم بغراس الأرض وعمارتها وإجراء مياهها كما شوهد في كثير من بلادهم وأحوالهم، ورجوع العرب حراثين(٥).

وكثرة المال حتى يُهِمَّ رب المال من يقبله فلا يجده، كما يشير إليه في ما تقدم بترك الصدقة ويعطى الرجل المائة دينار فيتسخطها.

وفي «الصحيح»: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»(٦).

ووقع التعبير عنه في رواية: «بظهور الكنوز»، وبقوله: «يفيض المال»، أي: يكثر وهذا في زمن عيسى عليه السلام بحيث تترك القِلاَص بكسر القاف جمع قلوص بفتحها وهو من الإبل كالفتاة من النساء، والمعنى أنه يزهد فيها ولا يرغب في اقتنائها

(١) رواه أحمد في المسند [٢/ ٢٦٢ رقم ٦٧٧٠].

(٢) رواه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، الدر المنثور [٦/ ٥٣].

(٣) رواه مسلم [٢/ ٧٠١ رقم ١٠١١] وأحمد في المسند [٢/ ٣٧٠-٣٧١] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٧٧] وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢١٩].

(٥) رواه الطبراني في الكبير [٨/ ٢٩٤].

(٦) رواه مسلم [١/ ٧٠١ رقم ١٠١٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لكثرة الأموال وقلة الآمال وعدم الحاجة والعلم بقرب القيامة»(١).

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تظهر معادن كثيرة لا يمسكها إلا أراذل الناس»(٢).

وغبطة المرء بخفة المال كما كان يغبط بكثرة المال، وتكون الدنيا قبل هذا مع الأشرار ويتمنى أبو الخمسة أنهم أربعة(٣).

وفشو التجارة وكثرتها حتى تعين المرأة زوجها عليها ويتجر الرجل وامرأته جميعاً بل يتجر النساء.

قال الحسن: لقد أتى علينا زمان إنما يقال: تاجر بني فلان، وكاتب بني فلان، ما يكون في الحي إلا التاجر الواحد والكاتب الواحد(٤).

وقلة المكاسب بحيث يضرب التاجر إلى اليمن فلا يجاوز ربحه رأس ماله(٥).

ولا تقوم الساعة حتى يعز الله فيه الدراهم الحلال والأخ في الله وذكر خصلة ثالثة(٦).

وعدم المبالاة بما يصل إليه من المال أمن حلال أم من حرام(٧).

وأكل الربا بحيث يروى شموله حتى إن من لم يفعله أصابه من غباره(٨).

وعد الصدقة ـ يعني: الزكاة ونحوها ـ مغرماً، أي: يرى أن إخراج زكاته غرامة يغرمها، بل صار الكثير منهم أو أكثرهم ممن له ديانة في الجملة يجتزىء عنها بما يؤخذ منه من المكوس، وكذا بما يتعرض له في أخذه زيادة على ذلك، وعز على الفقراء التوصل إلى استحقاقهم، بل غالب من يعطى إنما هو للوجاهة، وقد لا يكون ممن يسقط به الفرض، ولذا تسلط الحكام عليهم.

---

(١) رواه البخاري [٦/ ٤٩١ رقم ٣٤٤٨ـ الفتح] ومسلم [١/ ١٣٦].
(٢) الطبراني في الأوسط [٢/ ١٤١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وإسناده ضعيف.
(٣) الطبراني [١٠/ ١٢ رقم ٩٧٧٧] والبزار كما في الكشف [٤/ ١٣١] وإسناده ضعيف جداً.
(٤) النسائي [٧/ ٢٤٤].
(٥) رواه الديلمي كما في مسند الفردوس [٥/ ٨٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) رواه الطبراني في الأوسط رقم [٨٨] وأبو نعيم في الحلية [٤/ ٣٧٠] وذكره الهيثمي في المجمع [١/ ١٧٢].
(٧) رواه البخاري [٤/ ٣١٣ـ الفتح].
(٨) رواه أحمد في مسنده [٢/ ٤٩٤] وأبو داود [رقم ٣٣٣١] والنسائي [٧/ ٢٤٣] وابن ماجه [٢/ ٧٦٥] وإسناده ضعيف. انظر مسند أحمد [١٦/ ٢٥٨] بتحقيق الأرناؤوط.

وكثرة المستحذين وقلة المعطين، وقطيعة الأرحام[١]، وسوء الجوار، وتقريب الصديق وبرّه، وجفاء الأب وبعده، وطاعة الزوجة، وعقوق الأم، وكون الولد غيظاً بمعجمتين، يعني: يغيظ أباه وأمه بعقوقه لهما وعدم امتثاله أمرهما.

وظهور البخل والشح، وهو إلقاؤه في قلوبهم على اختلاف أحوالهم حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى.

ويبخل الصانع بصنعته حتى يترك تعليمها لغيره.

ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير.

وقوله: يلقى، أي: يتلقى ويتعلم ويتواصى به ويدعى إليه، ويجوز أن يكون بتخفيف اللام والقاف، أي: لا يترك لإفاضة المال وكثرته.

وبالجملة فالمحذور كما أشار إليه ابن أبي جمرة من ذلك ما يترتب عليه مفسدة والشحيح شرعاً هو من منع ما وجب عليه وإمساك ذلك محق للمال مذهب لبركته.

ويؤيده: «ما نقص مال من صدقة»[٢].

فإن أهل المعرفة فهموا منه أن المال الذي يخرج منه الحق الشرعي لا تلحقه آفة ولا عاهة، بل يحصل له النماء، ومن ثم سميت الزكاة لأن المال ينمو بها ويحصل فيه البركة، انتهى.

ويؤيده: «ما تلف مال في بر وبحر إلا بمنع الزكاة»[٣].

وغلبة أهل المد على مدهم وأهل القفيز على قفيزهم، وهما مكيلان مما يشهد له ما صح: منعت العراق مدها وقفيزها.

وفي رواية: «إذا منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُدْيهَا ـ بضم الميم ثم دال ساكنة ـ على وزن قفل ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم»[٤].

وفي تأويله قولان:

---

(١) رواه أحمد [٢/ ١٦٢ـ ١٦٣] والبزار رقم [٩٤٠٩] ونحوه عن ابن عدي في الكامل [٤/ ١٤٣٩] وإسناده صحيح، انظر صحيح الجامع [٥٨٩٤].

(٢) رواه مسلم في صحيحه [٤/ ٢٠٠١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين [٣/ ١٣] عن أبي هريرة عن عمر رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في المجمع [٣/ ٦٣] رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمر بن هارون وهو ضعيف، وضعفه الالباني في الضعيفة [رقم ٥٧٥].

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٠ رقم ٢٨٩٦].

أحدهما: لإسلامهم فسقطت عنهم الجزية.

وثانيهما: وهو الأشهر، أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين.

وأما قوله: وعدتم إلى آخره، فهو بمعنى: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»(١).

وأن يرى الهلال لليلة فيقال: هو ابن ليلتين لانتفاخه وكبره.

وفي رواية: «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة»(٢).

وللدارقطني عن عامر الشعبي عن أنس رفعه: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبَلاً، أي: يرى ساعة يطلع لعظمه، فيقال: ابن ليلتين»(٣)، يقال: رأيت الهلال قَبَلا، وقبل: أي معاينة.

وتخريب الكعبة على يد ذي السّويقتين من الحبشة(٤) بعد موت عيسى عليه السلام وقبض أرواح المؤمنين.

مع أن ظهور ذي السّويقتين قال كعب الأحبار: في زمن عيسى، وكذا قال الحليمي، وأن الصريخ يأتي عيسى عليه السلام بذلك، فيبعث إليه طائفة ما بين الثمان إلى التسع، وقيل: ذلك في زمنه أيضاً وبعد هلاك يأجوج ومأجوج يحج الناس ويعتمرون كما ثبت(٥) مما لا ينافيه في المعنى المروي: «أنه لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»(٦)، وفي لفظ: «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع، فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة»(٧).

---

(١) حديث متواتر رواه مسلم [١/ ١٣١].

(٢) رواه الطبراني في الكبير [١٠/ ٢٤٤] والعقيلي في الضعفاء [٢/ ٣٥١] وابن عدي في الكامل [٤/ ٢٨٩] وتمام في فوائده [١٧٣٦] وذكره الألباني في الصحيحة وصححه [رقم ٢٢٩٢].

(٣) رواه الطبراني في الصغير [٢/ ١٢٩] والأوسط [٩/ ١٤٧].

(٤) رواه البخاري [٣/ ٤٥٤ رقم ١٥٩١ـ الفتح] ومسلم [٤/ ٢٢٣٢ رقم ٢٩٠٩] ورواه البخاري [٣/ ٤٦٠ رقم ١٥٩٥ـ الفتح].

(٥) رواه البخاري [٣/ ٤٥٤ رقم ١٩٥٣ـ الفتح].

(٦) رواه الحاكم [٤/ ٤٥٣] وابن حبان [٨/ ٢٦٥] من حديث أبي سعيد الخدري وهو في البخاري رقم [١٥٩٣].

(٧) رواه ابن خزيمة في صحيحه [١/ ٤٩] وابن حبان [٨/ ٢٦٥] والحاكم في المستدرك [١/ ٤٤١] وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في أخبار أصبهان [١/ ٢٠٣] وصححه الالباني، انظر صحيح الجامع [٩٥٥].

وفي حديث لأحمد وأبي داود مرفوع: «اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين»[١].

وعن كعب الأحبار أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس فيقادا إلى الجنة وفيها أهلها والعرض والحساب ببيت المقدس».

وفي لفظ لكعب قال: «حجة أحب إليّ من عمرتين، وعمرة أحب من ركبة إلى بيت المقدس، ولا تقوم الساعة حتى يسير أحدهما إلى الآخر لأن المقام والميزان عندهما»[٢].

ونحوه: «تزف الكعبة إلى الصخرة فيتعلق بها جميع من حج واعتمر فإذا رأتهما الصخرة قالت: مرحباً بالزائرة والزائرين إليها».

ونفي المدينة شرار أهلها مما يشهد له: «تنفي المدينة خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد».

وبلوغ المساكن إهاب أو يهاب وهو اسم موضع بنواحي المدينة، وقيل: لسهيل راويه: وكم ذلك من المدينة؟ قال كذا وكذا ميلا[٣].

ولا يقسم الميراث[٤]، وذلك إما لكثرة الأموال أو لعدم وجدان من يحسن قسمتها حتى كان بعض أئمة الفرائض يقول: ما دمت بين أظهركم فأنتم آمنون من ظهور الدجال.

ولكن الثابت في «الصحيح» أنه في مقتلة بين الروم وأهل الشام يتعاد بنو الأب من المسلمين، كانوا مائة فلا يجدون بقي منهم غير الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو بأي ميراث يقسم[٥].

ورفع الأمانة[٦] واتخاذها مغرماً، وفي «الصحيح: «إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة»[٧]، قيل: يا رسول الله، وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة»، ولا ينافيه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم فتح مكة: «إن

---

(١) مسند أحمد [٥/ ٣٧١] وأبو داود [٤/ ٤٩٠] ورواه كذلك الحاكم [٤/ ٤٥٣].

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية [٦/ ١٥-١٦].

(٣) رواه مسلم [٤/ ٢٢٢٨].

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٢٣].

(٥) رواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٣٣٣] وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) رواه البخاري [١١/ ٣٣٣] ومسلم [١/ ١٢٦- ١٢٧] واللفظ له.

(٧) رواه البخاري في صحيحه [١/ ١٤٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

الأمانة في الناس اليوم قليلة»[١].

ويخون الأمين ويؤتمن الخائن ويصدق الكاذب ويكذب الصادق.

وعد الفاحشة زيارة وكثرة الزنى والتسافد في الطرق تسافد الحمر بأن يقوم الرجل إلى المرأة فيفترسها في الطريق ويرفع ذيلها كما يرفع ذنب الغنم فيكون خير الناس وأمثلهم يومئذ من يقول: لو واريتها وراء هذا الحائط فهو في ذلك الزمن مثل أبي بكر وعمر[٢].

واكتفاء النساء بالنساء والرجال بالرجال.

والتغاير على الغلام كما يتغاير على المرأة[٣].

ورضخ رؤوس أقوام بكواكب من السماء باستحلالهم عمل قوم لوط[٤].

وكثرة السراري، ففي رواية: «إذا ولدت الأمة ربتها»[٥]، أي: سيدتها، ويكن في آخر الزمان من المشار إليهن بالحشمة بحيث يكنَّ تحت الرجل الكبير دون غيرهن من الحرائر.

ومنهم من جعل كثرتهن لكثرة الفتوحات، يعني: فيكون ذلك علامة كثرتها، ولكن ليس هذا حينئذ من أشراط الساعة؛ لأنه كان في صدر هذه الأمة كثيراً.

والتغالي في المهور وإغفال «لو كنتم تغرفون من بطحان ما زدتم»[٦]، وكون التيسير السبب في دوام الألفة غالباً[٧].

وكثرة الطلاق الذي هو يمين الفساق.

وكون الرجل يخرج من عند أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أصابه أهله من بعده.

---

(١) رواه ابن إسحاق في سيرته كما في البداية والنهاية [٤/ ٢٩٣].

(٢) رواه البزار كما في الكشف [٤/ ١٤٨] وابن حبان [٨/ ٢٦٩] ومسلم [٤/ ٢٢٥٠].

(٣) رواه الديلمي [٥/ ٨٦ رقم ٧٥٤٣] بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، انظر كنز العمال [١٤/ ٢٤٩].

(٤) رواه الديلمي [٥/ ٨٨، رقم ٧٥٤٧] عن ابن عباس مرفوعاً وسنده ضعيف.

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه [رقم ٥٠/ ٤٧٧٧] ورواه مسلم [رقم ٨-٩] من حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٦) رواه أحمد في مسنده [٣/ ٤٤٨] والطيالسي [١/ ٣٠٦] والبيهقي في السنن [٧/ ٢٣٥] والحاكم في المستدرك [٢/ ١٧٨].

(٧) رواه البيهقي في السنن [٧/ ٢٣٥] والحاكم في المستدرك [٢/ ١٨٢].

وفي لفظ: «لا تقوم الساعة حتى تكلم السِّباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»(١).

ويتزوج الرجل النبطية ويترك ابنة عمه(٢).

وكثرة النساء وقلة الرجال بحيث يتبع الرجل الواحد خمسون امرأة، يعني: ممن يلذن به.

وقد قال أبو القاسم القرطبي أخو شارح مسلم أبي العباس: إنه ربط نحواً من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في حبل واحد مخافة سبايهن من العدو لما خرجوا من قرطبة.

«ويتبع الرجل قريب من ثلاثين امرأة يقلن: انكحنا»(٣).

«وتجد المرأة النعل فتقول: كانت هذه نعل رجل».

واستخفاف بالدماء وكثرة الهرج، أي: القتل والكذب.

وقد قال رجل لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «يا أبا سليمان اتق الله فإن الفتن قد ظهرت، فقال: أما وابن الخطاب حي فلا، وإنما تكون بعده فينظر الرجل فيفكر هل يجد مكاناً لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو به من الفتنة والشر فلا يجد فتلك الأيام التي ذكر رسول الله ﷺ بين يدي الساعة أيام الهرج»(٤).

والاجتلاد بالسيوف وقتل الإمام، فعن حذيفة: «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ويرث دنياكم شراركم»(٥).

وعنه أنه قال: «ما تعدون قتل عثمان فيكم، أتعدونه فتنة؟ قلنا: نعم، قال: هي والله هي والله أول الفتن وآخرها الدجال»(٦).

وقتل الرجل لأخيه، أي: ونحوه من أب وقريب على الدنيا(٧).

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٢/ ٨٣ـ ٨٤] عن أبي سعيد الخدري والترمذي [٣/ ٣٢٢] وقال: حديث حسن صحيح وابن حبان كما في الموارد [٢١٠٩] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٦٧ـ ٤٦٨] وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، انظر صحيح الجامع [٧٠٨٣].

(٢) تقدم وهو حديث موضوع رواه الطبراني [٨/ ٢٩٤].

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في البغية [٢/ ٧٨٨] وسنده ضعيف.

(٤) رواه أحمد [٤/ ٩٠] والطبراني في الكبير [٤/ ١١٦] والأوسط [٨/ ٢٢٧].

(٥) رواه أحمد في مسنده [٥/ ٣٨٩] والترمذي [٤/ ٤٠٧] وابن ماجه [٢/ ٣٤٢] وإسناده ضعيف، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة [٢٠٤٦].

(٦) انظر مصنف ابن أبي شيبة [٧/ ٤٥٠] والبداية والنهاية [٧/ ٢٠١].

(٧) رواه أحمد في مسنده [٤/ ٣٩١ـ ٣٩٢] وابن ماجه [٢/ ١٣٠٩] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٥١].

وإذا وضع السيف في الأمة لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة(١).

ولا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا المقتول على أي شيء قتل، القاتل والمقتول في النار(٢).

واقتتال فئتين عظيمتين من المسلمين دعواهما واحدة ويكون بينهما مقتلة عظيمة(٣)، وقد وقع ذلك في زمن الصحابة(٤) رضي الله عنهم مما كانوا مجتهدين فيه، والمخطىء منهم معذور لأنه بالاجتهاد. ولا حاجة للتطويل في شرحه.

وغزوة جزيرة العرب ثم فارس ثم الروم فيفتحها الله واحدة بعد أخرى ثم الدجال.

قال نافع بن عتبة راويه عن النبي ﷺ كما سيأتي قريباً: «لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم»(٥).

وفتح قسطنطينية بضم أولها وثالثها وهي من أعظم مدائن الروم، ففي «صحيح مسلم» مرفوعاً: «أسمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إلٰه إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إلٰه إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إلٰه إلا الله والله أكبر، فتفرج لهم فينظرونها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»(٦).

فهذه المدينة هي التي عيناها، ولكن قوله: من بني إسحاق إنما هو من بني إسماعيل وسياق الحديث يدل له فإنه إنما أراد العرب(٧).

ويروى: «لا تقوم الساعة حتى يملك القسطنطينية وجبل الديلم رجل من أهل بيتي»(٨).

---

(١) رواه أبو داود [٤/ ٤٥٠ـ ٤٥٢] وأبو نعيم في دلائل النبوة [٤٦٩] وأبو عمرو الداني في الفتن [١/ ١٨٤ـ ١٨٦] وغيرهم، وأصله في مسلم [٤/ ٢٢١٥].

(٢) رواه مسلم [٤/ ٢٢٣١ـ ٢٢٣٢].

(٣) رواه البخاري [٦/ ٦١٦]، [١٣/ ٨١] ومسلم [٤/ ٢٢١٤].

(٤) انظر فتح الباري [١٣/ ٨٥] ودلائل النبوة للبيهقي [٦/ ٤١٨].

(٥) رواه مسلم رقم [٢٩٠٠].

(٦) صحيح مسلم [٤/ ٢٢٣٨] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) انظر شرح النووي على مسلم [٦/ ٤٣ـ ٤٥].

(٨) رواه ابن ماجه [٢/ ٩٢٨ـ٩٢٩] عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وإسناده ضعيف. انظر ضعيف الجامع [٢٧٧٩].

وعن مالك بن يخامر عن معاذ بن جبل مرفوعاً: «عُمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»(١). ولابن ماجه وأبي داود عن معاذ رفعه: «الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة، قال أبو داود: سبعة أشهر»(٢)، ولابن ماجه عن عبد الله بن بسر مرفوعاً أيضاً: «بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج الدجال في السابعة»(٣).

وعن نافع بن عتبة بن أبي وقاص رفعه: «تقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تقاتلون الروم، ثم تقاتلون الدجال، قال نافع: يا جابر لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم».

بل صح مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ـ وهما موضعان بالشام بقرب حلب فالأولى بفتح الهمزة وعين مهملة والثانية بكسر الموحدة على الصحيح ـ فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم: خلو بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان: أن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته»(٤).

وصح فيما يكون بين يدي الساعة «هدنة ـ أي: مصالحة بين المتحاربين أو بين المسلمين والكفار ـ تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون بكم فيسيرون إليكم على ثمانين غاية، أي: راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً فسطاط المسلمين، أي: محلهم

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٥/ ٢٤٥] وأبو داود [٤/ ٤٨٢] وابن أبي شيبة في مصنفه وإسناده صحيح. انظر صحيح الجامع [٤٠٩٦].

(٢) ابن ماجه [٢/ ١٣٧٠] وأبو داود [٤/٤٠٨] ورواه أحمد في مسنده [٥/ ٢٣٤] والترمذي [٤/ ٤٤٢].

(٣) ابن ماجه [٢/ ١٣٧٠] ورواه أحمد [٤/ ١٨٩] وأبو داود [٤/ ٤٠٩] والبغوي في شرح السنة [١٥/ ٤٧] وإسناده ضعيف، انظر ضعيف الجامع [٢٣٦١].

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٢١] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يجمعهم من مدينة أو غيرها يومئذ بأرض يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها دمشق»(١).

فالغوطة بالضم اسم البساتين والمياه التي حول دمشق.

وعن كعب الأحبار مما رويناه في فضائل الشام للربعي أنه قال: «معاقل المسلمين ثلاثة فمن الروم دمشق، ومن الدجال الأردن، ومن يأجوج ومأجوج الطور»(٢) انتهى.

والمعاقل هنا الحصون، واحدها معقل.

ولابن ماجه في «سننه» وأبي الحسن الربعي في فضائل الشام من جهة سليمان بن حبيب عن أبي هريرة رفعه: «إذا وقعت الملاحم بعث الله تعالى من دمشق بعثاً من الموالي أكرم العرب فرساً وأجوده سلاحاً يؤيد الله بهم الدين»(٣).

والملاحم جمع ملحمة، وهي الحروب وموضع القتال مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحمة الثوب بالسَّدَى أو قيل: هو من اللحم لكثرة لحوم القتل فيها.

وصح قول المستورد القرشي عن عمرو بن العاص: سمعت النبي ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، فقال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعة: إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ـ وفي لفظ: وأخبرهم عند مصيبة ـ وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك»(٤).

وفي حديث يروى: «عليكم بجهاد بني الأصفر فإن لكم كفلين من الأجر على جهاد من سواهم من أهل الأرض».

وقتال الترك وفي أخبارهم تصنيف سمعناه، وهم كما صح: «صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف ـ بضم المعجمة ثم لام ساكنة وفاء، أي: فطسها قصارها

---

(١) رواه البخاري [٦/ ٢٧٧ـ الفتح] والزيادة عند الطبراني في الكبير [١٨/ ٤١ـ٤٢] وابن عساكر في تاريخ دمشق [١/ ٢٣٣ـ ٢٣٥].

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق [١/ ٢٤٤].

(٣) ابن ماجه [٢/ ١٣٦٩ـ ١٣٧٠] فضل الشام للربعي [٦١] بتخريج الالباني، ورواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٤٨] وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٢٢].

مع انبطاح، وقيل: هو غلظ في أرنبة الأنف، وقيل: هو تطامن فيها وكله متقارب ـ كأن وجوههم المجان ـ بفتح الميم وتشديد النون جمع مجن الترس ـ المطرقة ـ بإسكان الطاء وتخفيف الراء والمعنى تشبيه وجوه الترك في عرضها ونتوء وجناتها بالترسة المطرقة ـ ينتعلون الشعر»، وفي لفظ: «تقاتلون قوماً نعالهم الشعر»[١].

ويروى: «اتركوا الترك ما تركوكم فإن أول من يسلب من أُمتي ملكهم بني قنطوراء»[٢]، الحديث.

زاد في رواية: «فإنهم أصحاب بأس شديد وغنائمهم قليلة».

قال النووي رحمه الله: هذه الأحاديث كلها معجزة لرسول الله ﷺ، فقد وجد حال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها النبي ﷺ وقاتلهم المسلمون مرات، انتهى.

وعن المرات التي قاتل فيها المسلمون الترك في خلافة بني أمية، وكان ما بينهم وبين المسلمين مسدوداً إلى أن فتح ذلك شيئاً بعد شيء وكثر السبي منهم وتنافس فيهم الملوك لما فيهم من الشدة والبأس حتى كان أكثر عسكر المعتصم منهم ثم غلبت الأتراك على الملك فقتلوا ابنه المتوكل ثم أولاده واحداً بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم ثم كان الملوك السامانية من الترك أيضاً فملكوا بلاد العجم ثم غلب على تلك الممالك آل سبكتكين ثم آل سجلوق وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم وكان بقايا أتباعهم بالشام وهم آل زنكي وأتباع هؤلاء وهم بيت أيوب، واستكثر هؤلاء أيضاً من الترك فغلبوهم على المملكة بالديار المصرية والشامية والحجازية وخرج على آل سلجوق في المائة الخامسة الغز فخربوا البلاد وفتكوا في العباد ثم جاءت الطامة الكبرى بالططر فكان خروج جينكزخان بعد الستمائة فأسعرت بهم الدنيا ناراً خصوصاً المشرق بأسره حتى لم يبق بلد منه حتى دخله شرهم ثم كان خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم آخر خلفائهم على أيديهم في سنة ست وخمسين وستمائة.

ثم لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم اللنك، ومعناه الأعرج، واسمه تَمر ـ بفتح المثناة وضم الميم وربما أشبعت ـ فطرق الديار الشامية وعاث فيها وحرق دمشق حتى صارت خاوية على عروشها ودخل الروم والهند وما بين ذلك وطالت مدته

---

(١) رواه البخاري [٦/ ١٠٤] ومسلم [٤/ ٢٢٣٣].

(٢) رواه الطبراني في الكبير [١٠/ ١٨١] والأوسط [٦/ ٧] عن ابن مسعود رضي الله عنه بهذا اللفظ، وقال الهيثمي في المجمع [٥/ ٣٠٤] وفيه مروان بن سالم وهو متروك، وروى أوله ابن الجوزي في الموضوعات [رقم ١٢٠٥] ورواه أبو داود في الملاحم [٤٣٠٢].

إلى أن أخذه الله وتفرق بنوه في البلاد، وظهر بجميع هذا مصداق قوله ﷺ: «إن بني قنطور أول من يسلب أمتي ملكهم».

فالمراد ببني قنطورا الترك، وقنطورا بالمد والقصر، قيل: كانت جارية لإبراهيم عليه السلام ولدت له أولاداً فانتشر منهم الترك، حكاه ابن الأثير واستبعده، وجزم به المجد في «القاموس» مع حكاية قول آخر أن المراد بهم السودان.

وفي حديث آخر: «كأن وجوههم الحجف ـ بفتحتين جمع حجفة الترس ـ يلحقون أهل الإسلام بمنابت الشيح كأني أنظر إليهم وقد ربطوا خيولهم بسواري المسجد»[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كأني بالترك وقد أتتكم على براذين مجذمة الآذان حتى تربطها بشط الفرات»[٢].

وأسند الحاكم صاحب الصحيح في «مستدركه» إلى محمد بن يحيى أبي بكر الصولي النحوي أنه قال: أول من مدح الترك من شعراء العرب علي بن عباس الرومي، حيث يقول:

إذا ثبتوا فسد من حديد تخال عيوننا فيه تحار
وإن برزوا فنيران تلظى على الأعداء يضرمها استعار[٣]

وقتال خوز وهم من بلاد الأهواز من عراق العجم بحيث قيل إنهم صنف منهم.

وقتال كرمان وهي بلدة معمورة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند، ورواه بعضهم بالإضافة فيهما خور كرمان واستشكل الجمع بينه وبين قتال الترك، قال شيخنا: ويمكن أن يجاب بكونهما حديثين ويجتمع منهما الإنذار بخروج الطائفتين.

وكون المغنم دولاً، جمع دُولة بالضم، فيكون لقوم دون قوم ولا يفرح بالغنيمة إما للاختصاص أو للكثرة والاستغناء أو لما تقدم في «لا يقسم ميراث».

ورخص الخيل بعد غلوها لقلة التوجه للجهاد «وخليفة يحثو أو يحثي المال حثياً أو حثواً ولا يعده عداً».

وفي لفظ: «يقسم المال ولا يعده»[٤]، وذلك لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٤/ ١١٣] عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً، وأبو داود [٤/ ١١٣] والحاكم في المستدرك [٤/ ٤٧٤].

(٢) رواه الطبراني [٩/ ٧٣] وعبد الرزاق في المصنف [٢٠٧٨٥] والحاكم [٤/ ٤٧٥] عن محمد بن سيرين عن ابن مسعود به، وقال الهيثمي في المجمع [٧/ ٣١٢].

(٣) مستدرك الحاكم [٤/ ٤٧٤ـ ٤٧٥].

(٤) رواه مسلم [٤/ ٢٢٣٥] عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما.

مع سخاء نفسه.

وكثرة القذف والتساهل بشأنه.

وكثرة الشرور بحيث يكرم الرجل مخافة شره ويترك العمل «بإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»(١) وفيض اللئام فيضاً أي: يكثروا.

وفي لفظ: «وتهلك الوعول» وهم وجوه الناس وأشرافهم «وتظهر التحوت» وهو الذي كان تحت أقدام الناس من ليس يعلم بينهم أو فيهم(٢).

وفي لفظ: «التحوت فسول الرجال وأهل البيوت الغامضة وأهل الوعول البيوت الصالحة»(٣).

والمعنى: يغلب الضعفاء من الناس أقوياءهم. شبه الأشراف بالوعول لارتفاع شأنها، على أنه قيل: إنه أراد بظهور التحوت ظهور الكنوز التي تحت الأرض.

وفي «الصحيح»: إذا كان الحفاة العراة رعاء الشاء رؤوس الناس فذلك من أشراطها»(٤).

وفي الحديث أيضاً: «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة رذالها»(٥).

وفي آخر: «لا تقوم الساعة حتى يكون أخص الناس بالدنيا لكع بن لكع»(٦)، وهو عند العرب العبد، ثم استعمل في الحر للذم.

وصح: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، ولله در القائل:

أيا دهر أعملت فينا أذاكا ... ووليتنا بعد وجه قفاكا

قلبت الشرار علينا رؤوسا ... وأجلست سفلتنا مستواكا

فيا دهر إن كنت عاديتنا ... فها قد صنعت بنا ما كفاكا

وقال آخر:

ذهب الرجال الأكرمون ذوو الحجى ... والمنكرون لكل أمر منكر

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٥/ ١٩٨] وأبو داود [رقم ٢٥٩٤] والنسائي [٦/ ٤٥ـ ٤٦] وغيرهم.

(٢) رواه ابن حبان كما في الموارد [٤٦٥] والطبراني في الأوسط [٤/ ١٢١] وأبو نعيم في الحلية [٤/ ٣٠٦].

(٣) الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين [٧/ ٢٩٣].

(٤) رواه البخاري ومسلم، وقد تقدم.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين [٧/ ٢٩٢ـ ٢٩٣] عن أبي بكرة وإسناده ضعيف، ورواه البزار [٤/ ١٥٠].

(٦) رواه أحمد في مسنده [٥/ ٣٨٩] والترمذي [٤/ ٤٢٧] وغيرهما. انظر صحيح الجامع [٧٤٣١].

وبقيت في خلف يزين بعضهم   بعضاً ليدفع معور عن معور

وتطاول الناس سيما الحفاة العراة في البنيان حيث كثرت أموالهم واشتدت وجهاتهم ولم يكن لهم دأب ولا همة سوى في البناء غالباً.

واتخاذ بيوت توشى كما توشى المراحل، يعني: تنقش وتزخرف[١].

وتخريب عمران الدنيا وعمارة خرابها[٢]، يعني: بحيث يعمر خرائب عنترة ونحوها ويكاد جامع عمرو بن العاص أن يخرب.

وخروج الناس من المدينة إلى الشام.

واتخاذ القينات، أي: الإماء القينات والمعازف ـ بمهملة ثم معجمة ـ أي: الدفوف وغيرها مما يضرب به وكثرة ذلك.

وشرب الخمر ولبس الحرير[٣].

وأن توضع العمائم وتلبس القلانس.

وحيف الأئمة، أي: جورهم وظلمهم[٤].

وبيع الحكم[٥]، فهو كناية عن الارتشاء والإرشاء، ويروى: «الدراهم والدنانير خواتيم الله في أرضه من جاء بها قضيت حاجتهم ومن لا فلا»[٦].

ويأتي على الناس زمان من لم يكن معه فيه أصفر وأبيض لم يتهن بالعيش[٧].

وفشو شهادات الزور وكتمان شهادة الحق.

ونقص الأحلام، أي: العقول.

وكثرة الشرط بمعجمة وفتح الراء وهم أعوان السلطان ونحوه، قال بعضهم: بل

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد [رقم ٤٥٩] وإسناده صحيح، وانظر الصحيحة [٢٧٩].

(٢) رواه الطبراني في الكبير [١٠/ ٢٨١] والأوسط [٥/ ١٢٧ـ١٢٨]، وقال الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٢٣] وفيه سيف بن مسكين وهو ضعيف.

(٣) رواه البخاري في صحيحه [١٠/ ٥١] تعليقاً، وأبو داود [٤٠٣٩].

(٤) رواه الحاكم [٣/ ٣٤٣] والطبراني في الأوسط [٥/ ١٢٦]، الهيثمي في المجمع [٧/ ٣٢٥].

(٥) رواه أحمد [٣/ ٤٩٤] والطبراني [١٨/ ٣٤ـ٣٧] وغيرهم، وصححه الالباني في الصحيحة [٩٧٩] وصحيح الجامع [٢٨١٢].

(٦) رواه الطبراني في الأوسط [٦/ ٣١٦] عن أبي هريرة مرفوعاً وضعفه الالباني في ضعيف الجامع [٣٠٠٨].

(٧) رواه الطبراني في الكبير [٢/ ٢٧٨ـ ٢٧٩] وغيره. وقال الهيثمي في المجمع [٤/ ٦٥] ومداره على أبي بكر بن أبي مريم وقد اختلط.

هم نخبة أصحاب الكبير الذين يقدمهم على غيرهم من جنده، انتهى، وهم الآن أعوان الظلمة ويطلق غالباً على أقبح جماعة الوالي ونحوه بل يطلق على الوالي نفسه، فيقال: والي الشرطة، وربما توسع إطلاقه على ظلمة الحكام.

ولا تنطح ذات قرن جمّاء ـ بفتح الميم والتشديد والمد ـ والجماء التي لا قرن لها يعني: من كثرة عدم الظلم وذلك في زمن عيسى عليه السلام وتكليم السباع للإنس كما تقدم، كأنه أيضاً في زمن عيسى عليه السلام وكثرة الهمازين واللمازين، والهمز العيب للناس بالغيب، واللمز العيب والوقوع في الناس، وقيل: العيب في الوجه.

إلى غير ذلك مما ذكر مما لا يحصر.

والحاصل، أن العلامات التي أخبر الشارع بأنها ستقع بعده قبل قيام الساعة مما في بعضها ما هو غير مذموم على أقسام:

أحدها: ما وقع على وفق ما قال كتمني رؤيته ﷺ واقتتال الفئتين العظيمتين، وقتال الترك، وكثرة الهرج، وظهور الفتن، وتطاول الناس في البنيان، وتمني بعض الناس الموت، وأخذ أمته بأخذ القرون قبلها مما هو مندرج في علامات النبوة حيث وقع طبقاً للخبر، وفي كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي وغيره مما هو بالأسانيد المقبولة الكثيرة.

ثانيها: وقعت مبادؤه أو ظهر الكثير منه ولم يستحكم والمراد ما استحكم بحيث لم يبق مما يقابله إلا النادر فهذا هو الذي يعقبه قيام الساعة، ومن هذا القسم تقارب الزمان وكثرة الزلازل وإلقاء الشح وخروج الدجالين الكذابين وتوسيد الأمر إلى غير أهله وعدم قسم الميراث.

ثالثها: لم يقع منه إلى الآن شيء كطلوع الشمس من مغربها وإعلام الشجر وغيره باختفاء اليهود خلفه[١].

وهذا التقسيم أحسن من قول بعضهم: من العلامات ما هو إمارة لمجرد القرب كالدخان والخسف.

ومنها ما هو إمارة للحصول كالدجال وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس.

نسأل الله السلامة والخلاص إلى انتهاء القيامة. وإلى هنا انتهى ما أُريد مني على ما جاء لا على ما وجب، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمئاب.

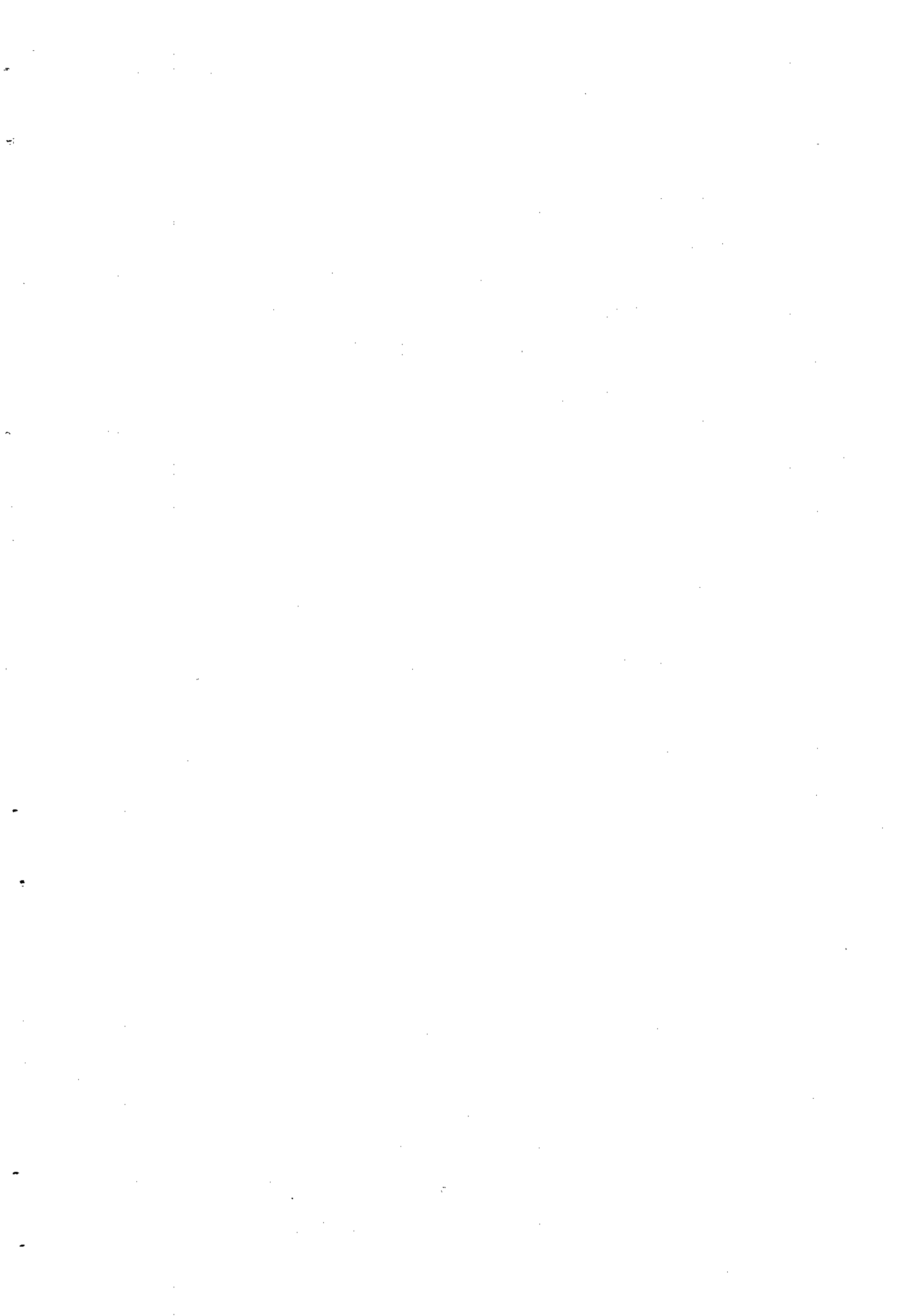
---

(١) انظر فتح الباري [١٣/ ٨٣ـ ٨٤].

أصل النسخة وتاريخ نسخها

علقت هذه النسخة من نسخة تاريخها أواخر شهر صفر سنة تسع وتسعين وثمانية بمكة المشرفة يسر الله تعالى تكميله على ما أريد ونفع به كاتبه وقارئه ومالكه وسامعه وجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات إنه قريب جواد مجيب الدعوات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله وحده.

وكان الفراغ من كتابتها يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان المعظم من شهور سنة ألف ومائة وعشرين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، على يد الفقير عمر بن عمر البدراوي الشافعي الأزهري غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده آمين آمين.



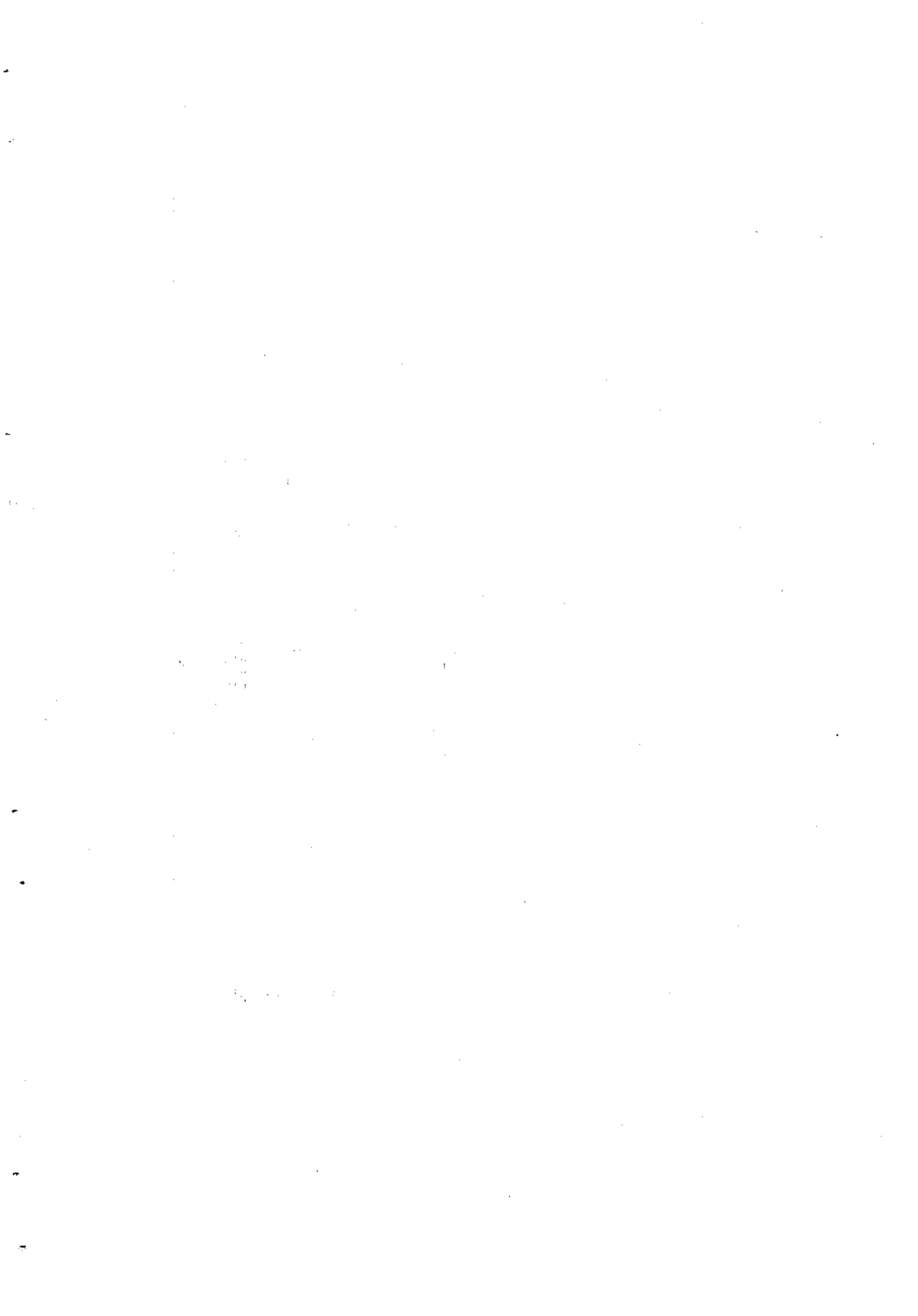
تحقيق البرهان
في إثبات حقيقة الميزان

للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي

المتوفى ١٠٣٣هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل   أحمد فريد المزيدي



المؤلف في سطور

هو الشيخ الإمام العلامة مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي الأزهري، نزل القاهرة.

ولد في طور كرم، ثم انتقل إلى القدس، ثم إلى القاهرة واستوطنها، وسبب اختياره لمصر آنذاك، أنها بلد العلم كما قال الشيخ إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي.

قال عنه المحبي: «أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر، كان إماماً محدثاً فقيهاً ذا اطلاع واسع على نقول الفقه ودقائق الحديث، ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة...».

وقال كمال الدين الغزي العامري: «شيخ مشايخ الإسلام، وأحد العلماء المحققين الأعلام...».

من مصنفاته

أورد منها المحبي نحو سبعين كتاباً، منها: شرف العلم على النسب، وكتاب في الخلاف والمجتهدين، ومناقب ابن تيمية، وتحقيق البرهان في شأن الدخان، وأقاويل الثقات، والشهادة الزكية، وانظر: خلاصة الأثر (٤/٣٥٨)، النعت الأكمل لأصحاب أحمد بن حنبل (١٨٩، ١٩٠)، مختصر طبقات الحنابلة (ص٩٨).

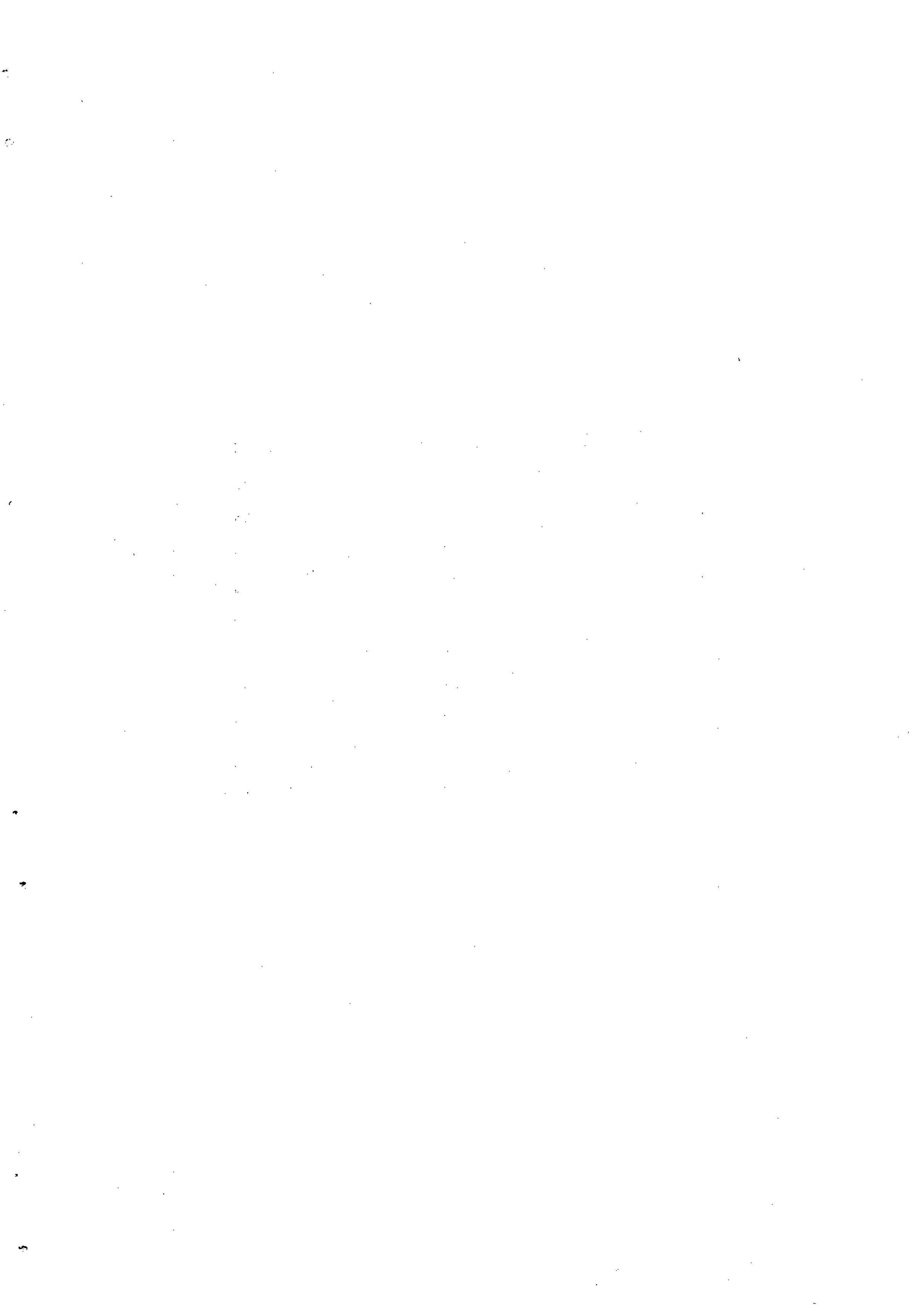
تقر به عينك ولديه فقصدنا هنا الإتيان أصحاب الأعراف
وأما هنا فمن طريق المعرض والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله
وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه
أجمعين والحمد لله رب العالمين ... ويتلوه كتاب تحقيق
البرهان في إثبات حقيقة الميزان للفقير مرعي الحنبلي
الحمد لمن أسبغ علينا فضله وإنعامه ومنحنا بمزيد كرمه
لطفا منه وكرامة أحمده حمدا يملأ الميزان ويوازي جبال
تهامة وأشكره شكر عبد جعل اليقين إمامه وقدم الخير أمامه
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد خائف
ذنوبه وآثامه وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله
المنزل عليه ونضع الموازين القسط ليوم القيامة صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه وشيعته وحزبه ما هطلت غمامه
وتجشر حلمه وسلم تسليما وبعد فيقول الفقير
مرعي الحنبلي هذه فرائد شريفة وفوائد تسر المبتدئين
يطلعين بما قيل ما من الوقفين فتتعلق بالكلام على
قول رب العالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة
فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى
بنا حاسبين وسميته تحقيق البرهان في إثبات حقيقة
الميزان فأقول وبالله المستعان ومنه أرجو العفو والغفران
مقدمة في إعراب مشكل هذه الآية قال الله تعالى ونضع الموازين
القسط أي العدل وانتصاب القسط على أنه صفة للموازين وأفرد

صورة الصفحة الأولى من الكتاب
(جامعة برنستون ضمن مجموع ١٥٣١)

فتأمل والكلام في هذه الآية الشريفة مما يطول وفيما ذكرناه
من هذه الألفاظ القليلة موعظة للمتفطن وتبصرة للعارفين
جعلنا الله تعالى منهم آمين آمين والحمد لله رب العالمين
قال مؤلفه الفقير مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي فرغت
منه بالأزهر نهار الأحد آخر رمضان سنة ثلاث وعشرين
بعد الألف وكتبت نهار الثلاثاء في غاية جماد الآخر
سنة ١١٤١ بقلم الفقير الحقير أحمد بن مصطفى بن يوسف بن زكي
ابن يوسف المقدسي الحنبلي غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له
بالمغفرة ولمن نظر فيه ولمن طالع فيه ونصحه ولوالديه
ولمشايخنا ولمن علمنا ولكل المسلمين آمين مقابلة
على خط مؤلفه ونقلت منه هذه النسخة رحمه الله

صورة الصفحة الأخيرة

(جامعة برنستون ضمن مجموع ١٥٣١)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن أسبغ علينا فضله وإنعامه، وحبانا بمزيد كرمه، لطفاً منه وكرامة.

أحمده حمداً يملأ الميزان، ويُوازي جبال تِهَامة، وأشكره شكر عبد، جعل القرآن إمامه، وقدّم الخير أمامه.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة عبد خائفٍ ذنوبه وآثامه.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، المُنَزَّل عليه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وشيعته وحزْبِهِ، ما هَطَلَتْ غَمَامة، وشجت حمامة، وسلم تسليماً.

وبعد:

فيقول الفقير مرعي الحنبلي:

هذه فرائد تسر المحبين، وفوائد تسبي الحاسدين، يطمئن بما فيها موافيها من الموفقين، تتعلق بالكلام على قول رب العالمين: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وسميته «تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان»، فأقول:

وبالله المستعان، ومنه أرجو العفو والغفران.

مقدمة: في إعراب مشكل هذه الآية

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: العدل وانتصاب القسط على أنه صفة للموازين وأفرد لكونه مصدراً، والمصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث.

والمعنى: ونضع موازين العَدْل.

أو أنه على حذف مضاف، والمعنى: ذوات القسط، وقيل: منصوب، على أنه

مفعول لأجله. وأما قوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فقيل: اللام بمعنى في وإلى ذلك ذهب ابن مالك وابن قتيبة، وهو رأي الكوفيين[١]. ومنه عندهم: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقول الشاعر:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم كما قد مضى من قبل عاد وتبع

وقيل: إنها للتعليل، أي: لأجل حساب أهل يوم القيامة، وقيل: اللام بمعنى عند. والمعنى: عند مجيء يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، أي: عند مجيئه. وقولهم: «جئت لخمس خلون من الشهر»، وأما قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ فالضمير يرجع للظُّلامه المفهومة من «نظلم». وقيل: يرجع للعمل. أي: وإن كان العمل مِثْقَال، وقرأ نافع: «مثقالُ» مرفوع[٢]. على أن كان تامة، وقوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾: جئنا بها. وقرىء: ﴿آتينا﴾ بمعنى جازينا، وهو قريب من أعطينا، أو من المواطأة، فإنهم أتوه بالأعمال، وآتاهم بالجزاء، فهو مفاعله. والضمير في «بها» للمثقال، وأُنّث لإضافته إلى الحبَّة. وسيأتي الكلام على قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾.

المذهب الحق في الميزان

إذا تقرر هذا، فاعلم:

أن الصحيح عند أهل السنة والجماعة، أن المراد بالميزان: الميزان الحقيقي، كما سيأتي لا أن المراد بالميزان: مجرد العدل، وإن وضعَ الموازين يوم القيامة كناية وتمثيل.

إنكار المعتزلة للميزان والرد عليهم

وإلى ذلك ذهبت المعتزلة، وأنكروا الميزان، محتجين:

أولاً: بأن الأعمال أعراض، إن أمكن إعادتها، لم يمكن وزنها.

ثانياً: ولأنها معلومة لله تعالى، فوزنها عبث[٣].

---

(١) انظر في تحقيق هذه المسألة: فتح البيان للقنوجي (٦/ ١٦٠)، ومغني اللبيب (٢١٢).

(٢) قال الأزهري: «قرأ نافع وحده بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب، ومن نصب فالمعنى: وإن كان العمل أو الإيمان زنة حبةٍ من خردلٍ، ومن رفع فالمعنى: وإن حصل للعبد زنةُ حبةٍ من خردل، وهذه تسمى (كان) المكتفية. (معاني القراءات ص٣٠٨) بتحقيقنا، والحجة لابن خالويه، والمفتاح للمغربي، بتحقيقنا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) انظر في هذه المسألة: زاد المسير [٣/ ١٧٠]، والقرطبي [٧/ ١٦٥]، وفتح الباري [١٣/ ٥٣٨]، وتفسير الفخر الرازي [١٤/ ٢٥، ٢٦].

والجواب:

إنه قد ورد في الحديث: إن كُتب الأعمال هي التي توزن، ولعل في الوزن حكمة، لا نَطَّلِعُ عليها، وعدم اطّلاعنا على الحكمة لا يوجب العبث[(١)] .

ونُقِل عن مجاهد: أن المراد بالميزان العدل[(٢)] . قال الفخر: ويروى مثله عن قتادة والضحاك.

قال القرطبي في تفسيره: قال مجاهد وقتادة والضحاك: ذكُر الميزان مثلٌ، وليس ثمَّ ميزان، وإنما هو العَدْل. قال الفخر: وحكاه ابن حبير عن ابن عباس.

وبه قال الأعمش، وكثير من المتأخرين.

وردّه الإمام الفخر، وقال: إن حمل الموازين على مجرد العدل، وصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز، من غير ضرورة، غير جائز، لا سيما وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة، في هذا الباب[(٣)] .

مذهب السلف الصالح في الميزان

قال الإمام الفخر في تفسير هذه الآية:

إن قول أئمة السلف: إنه سبحانه يضع الموازين الحقيقية ليزن بها الأعمال.

قال:

وعن الحسن: هو ميزان له كفّتان ولسان، وهو بيد جبريل عليه السلام[(٤)] .

وأخرج أبو الشيخ في تفسيره من طريق الكلبي عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان[(٥)] .

عظم الميزان

وأما عظمه: فقال الفخر والثعلبي وغيرهما: روي أن داود عليه السلام سأل ربه

---

(١) من ذلك ما رواه أحمد في «مسنده» [٢/ ٤٢٣] عن أبي هريرة مرفوعاً وسنده صحيح.

(٢) رواه البخاري معلقاً في «صحيحه» [١٣/ ٥٣٧ـ فتح]، والطبري في «تفسيره» [١٧/ ٣٣].

(٣) انظر تفسير الطبري [١٧/ ٣٣]، والقرطبي [١١/ ٢٩٣، ٢٩٤]، والرازي [٢٢/ ١٧٦]، وزاد المسير [٣/ ١٧٠]، وفتح البيان للقنوجي [٣/ ٢٨٧]، وإتحاف السادة [١٠/ ٤٧١].

(٤) أورده السيوطي في «الدر» [٣/ ٦٩] وعزاه لابن المنذر واللالكائي.

(٥) أورده السيوطي في «الدر» [٣/ ٦٩] وعزاه لأبي الشيخ الأصبهاني، وانظر التفسير الكبير «للرازي» [٢٢/ ١٧٧].

جل جلاله أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق قال: يا إلٰهي، من ذا الذي يقدر أن يملأ كفة حسناته؟ فقال: إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُها بتمرة.

وقال الفخر في تفسير سورة الأعراف: إن عبد الله بن سلام قال: إن ميزان ربِّ العالمين، ينصب بين الجنِّ والإنس، يُستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة والأخرى على جهنم، لو وُضِعت السماوات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذٌ بعموده ينظر إلى لسانه.

وروى الحاكم في «المستدرك» وصححه على شرط مسلم عن سلمان رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يُوضع الميزان يوم القيامة فلو وُزِنت فيه السماوات والأرض لوسِعَهُنَّ، فتقول الملائكة: يا ربُّ لمن يزن هذا؟ فيقول الله عزَّ وجلَّ: لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك»(١).

صفة الميزان

وأما صفته: فقال الغزالي في «الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة»(٢): ينصب الميزان، وهو كفتان، عن يمين العرش، من درّة بيضاء، وكفته عن يساره، من ظلمة.

وقال في «التذكرة» للقرطبي: المتقون توضع حسناتهم في الكفة النَيِّرة، وضغائرهم في الكفة الأخرى، فلا يجعل الله لتلك الضغائر وزناً، وتَثْقُلُ النَيِّرَة، حتى لا ترتفع، وترتفع المُظْلِمة، ارتفاع الفارغ الخالي.

وأما الكفار، فيوضع كفرهم وأوزارهم في الكفة المظلمة، وإن كان لهم أعمال برٍّ، وضعت في الكفة الأخرى، فلا يقاومها إظهاراً لفضل المتقين، وذلّ الكافرين.

صاحب الميزان

وأما صاحبه: ففي الثعلبي(٣) وغيره، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» وابن أبي الدنيا عن حذيفة رضي الله عنه قال:

صاحب الميزان، يوم القيامة: جبريل عليه السلام(٤).

---

(١) صحيح، رواه الحاكم [٤/ ٥٨٦]، والخطيب في «تاريخه» [٣/ ١٤٩]، والآجري في «الشريعة» [ص٣٨٢] عن سلمان موقوفاً وله حكم المرفوع. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) يسّر الله لنا تحقيقه.

(٣) في تفسيره المسمى بالكشف والبيان، عندي نسخة مخطوطة كاملة منه وهي ملفقة من عدة دُور للمخطوطات.

(٤) أورده السيوطي في «الدر» [٣/ ٦٩]، وعزاه لابن جرير وابن أبي الدنيا واللالكائي، وانظر إتحاف السادة [١٠/ ٤٧٢].

وقد مرّ قريباً قول الفخر، عن عبد الله بن سلام: وجبريل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه، وقول الحسن: هو ميزان، له كفتان ولسان، وهو بيد جبريل عليه السلام. وفي الثعلبي: عن أنس رضي الله عنه: وإن ملكاً من ملائكة الله عزَّ وجل موكل يوم القيامة بميزان ابن آدم، فيؤتى به، حتى يقف بين كفتي الميزان، فيوزن عمله، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يسمعه الخلائق، باسم الرجل: ألا سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفت موازينه، نادى الملك: ألا شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً[١].

عدد الموازين

وقد اختلف العلماء، هل الميزان واحد، أو أكثر؟ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري:

لكل واحد ميزان، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾.

وقال بعضهم[٢]: الأظهر إثبات الموازين يوم القيامة، لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:٨]. قال: وعلى هذا، فلا يبعد، أن يكون لأفعال القلوب ميزان، وللجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان [آخر][٣]. وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان منها، صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ يَعْدِلِهِ فلكُلِّ حادثةٍ لها مِيزَانُ

ولم يرضَ ابن عطيّة هذا القول ونحوه، وقال: إن الناس على خلافه، وإنما لكل أحد وزن مختصٌّ به، والميزان واحد.

وأجاب بعضهم[٢] عن جمع الموازين في الآية: بأنها إنما جُمعت، لكثرة من توزن أعمالهم أو هو جمع تفخيم.

الخلاف في الموزون

واختلف العلماء في الموزون، فقيل: يوزن العبد مع عمله، وقيل: يجسد العمل ويوزن.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» [٤/ ١٦٠] كشف، وأبو نعيم في «الحلية» [٦/ ١٧٤]، وأورده السيوطي [٣/ ٧٠] وعزاه في الدر إلى ابن مردويه واللالكائي والبيهقي عن أنس.

(٢) يقصد الإمام الرازي.

(٣) ما بين [ ] زيادة من تفسير الرازي [١٤/ ٢٦].

قال ابن عباس: يجاء بالحسنات في أحسن صورة، ويجاء بالسيئات في أقبح صورة. وقيل: يوضع في كفَّة الحسنات، جواهر بيض مُشْرِقة، وفي كفَّةِ السيئات جواهر سودٌ مظلمة.

والصواب: ما صححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما: إن الموزون الصحائف[١].

قال الإمام الفخر: «إن رسول الله ﷺ سئل: عما يوزن يوم القيامة؟ فقال: الصحف، وهو مذهب المفسرين»، لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨] فعلى هذا فالثقل الذي يكون في الميزان إنما يكون في صحائف الأعمال، حكاه ابن عطية عن أبي المعالي، قال ابن عطية: وهذا أقربها. ونقل المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فينشرَ له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيها خطاياه وذنوبه، فيقول الله: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا، يا رب. فيقول الله: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة، مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»[٢].

فثبت بهذا الحديث الصحيح أن الموزون إنما هو صحائف الأعمال.

قلت: وعلى هذا، فكيف يثقل وزن هذه الصحف؟ فهل العبرة في الوزن بتفاوت أجرام الصُحف أو بالكتابة التي فيها؟ وعلى كلا التقديرين فمشكل بحديث البطاقة. فسبحان العالم بكل شيء.

وأيضاً، فكل مسلم يأتي بالشهادتين في عمره، مرات كثيرة، فعلى هذا، كل مسلم فارق الدنيا مرتكباً للكبائر، ترجع حسناته على السيئات، فيكون من أهل الجنة، بلا عذاب.

وفيه نظر ظاهر، إذ الفُسّاق الموحدون، يُعذَّبون، كما قامت على ذلك الأدلة.

---

(١) انظر تفسير القرطبي [٧/ ١٦٤، ١٦٥].

(٢) صحيح، رواه أحمد في «المسند» [٢/ ٢١٣]، والترمذي [٢٦٣٩]، وابن ماجه [٤٣٠٠]، والحاكم في «المستدرك» [١/ ٥٢٩٢٦]، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ولم أر من تعرّض لهذا الإشكال ولا لجوابه. ولعل هذا مخصوص بأقوام، لطف الله تعالى بهم، بمقتضى مشيئته وحكمته.

أو أن المراد بما في السجلات المذكورة ما هو من أعمال الكفر، ولا شك أن الشهادة تجبُّ ذلك كله، وأما الأعمال الواقعة في الإسلام فلا يجبّها إلا التوبة، أو أعمال صالحة كثيرة، تعادلها، وإلا فصاحبها في المشيئة، حينئذ، فتأمل!! فإنه دقيق.

هل توزن أعمال الكافرين؟

واختلف العلماء، هل توزن أعمال الكافرين، أو الوزن خاص بأعمال المؤمنين. وفي كلٍّ آيات متعارضات. فقال بعضهم: توزن أعمال الكافرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٩] أي يجحدون، قاله مجاهد. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: ٨-٩]. قال القرطبي: فإن قيل: إذا وزن عمل الكافر فما يقابله في الكفة الأخرى؟ قلنا: ما كان منه من صلة الأرحام وأفعال البر، ونحو ذلك. غير أن الكفر إذا قابلها، رجح عليها. وقال بعضهم: لا توزن أعمال الكافرين، لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وأجاب من قال بوزن أعمالهم عن هذه الآية: أن المراد وزناً يُعتدُّ به، أي: فلا يكرمون ولا يعطون، وهذا مجاز عن عدم الاعتداد بهم[١].

والصواب: أن الميزان لا يكون في حق كل أحد، فإن الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يُنصب لهم ميزان، وكذلك من يُعجَّل به إلى النار، لا يقام لهم وزن.

وبقية الكفار، يُنصب لهم الميزان، فيظهر بهذا أن قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] محمول على من يُعجَّل به إلى النار، والآيات الأخر في حق بقية الكافرين.

فإذن: فلا تعارض بين الآيات، ولا مجاز في الآية، فتأمل هذا التحقيق.

وقال بعض أهل التحقيق: خيرات الكافر توزن، ويجزى بها، إلا أن الله تعالى حرم عليه الجنة، فجزاؤه أن يخفف عنه بدليل حديث أبي طالب[٢].

---

(١) انظر إتحاف السادة [١٠/ ٤٧٣]، والتذكرة للقرطبي [ص٣٧٦]، وتفسير الرازي [٢٢/ ١٧٧].

(٢) صحيح، رواه مسلم [٣٥٧]، وأحمد في «المسند» [١/ ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠] عن العباس بن عبد المطلب مرفوعاً.

وزن أعمال الجن

وذكر المحققون: أن أعمال الجن توزن كما توزن أعمال الإنس، وارتضاه الأئمة، ونقل ذلك عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

الحكمة من وزن الأعمال

واختلف العلماء: ما الحكمة في وزن الأعمال؟ مع أن الله تعالى عالمٌ بكل شيء قبل وزنه. قال الثعلبي: لأجل أربعة أشياء:

الأول: إما تعريف الله تعالى العباد، ما لهم عنده من جزاء على خير أو شر.

الثاني: أو امتحانهم بالإيمان في الدنيا.

الثالث: أو جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى.

الرابع: أو إقامة الحجة عليهم(١). انتهى.

قلت: الأحسن أن يقال: الحكمة فيه إظهار العدل، وبيان الفضل، حيث إنه تعالى يزن مثاقيل الذرِّ من الأعمال ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال أبو عثمان النهدي: قَدِمتُ إلى مكة حاجّاً أو معتمراً، فلقيتُ أبا هريرة فقلت: بلغني عنك أنك تقول: الله يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف حسنة. فقال: لم أقل ذلك، ولكني قلت: إن الحسنة تضاعف بألفي ألفي ضعف، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢) [النساء: ٤٠].

وقال الحسن: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أحبُّ إليَّ من قول العلماء: من أن الحسنة الواحدة تضاعف مائة ألف حسنة، لأن التضعيف الذي قالوا يكون مقداره معلوماً، وأما هذه العبارة التي في كتاب الله، فغير معلوم.

الطاعات التي لا توزن لعظمها

قال النسفي مستدركاً من عموم وزن الأعمال: إن الإيمان لا يوزن، لأنه ليس له ضد يُوضع في كفَّةٍ أخرى، لأن ضدَّه الكفر. والإيمان والكفر لا يكونان في الإنسان الواحد.

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي [٣/ ١٧١].

(٢) روى الطبري [٥/ ٩١]، أحمد [١٥/ ٩١٢٩٠]، والبيهقي في «الزهد» [٧٠٦، ٧٠٧] عن أبي هريرة مرفوعاً نحو هذا الأثر.

قلت: روي أيضاً أن البكاء من خشية الله لا يوزن لعظمه عند الله.

روى إمامنا أحمد: أن النبي ﷺ، نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي، فقال: من هذا؟ قال: فلان، فقال جبريل عليه السلام: إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله يُطْفي بالدمعة الواحدة بحوراً من نار جهنم[١].

وروى البيهقي: أن النبي ﷺ قال: «لو أن باكياً بكى في أمة من الأمم لرحموا، وما من شيء إلا له مقدار وميزان، إلا الدمعة، فإنها تُطْفأ بها بحار من نارٍ».

الأعمال غير المخلصة لا توزن

وكذلك الأعمال الغير المخلصة، لا توزن. روى البزار والطبراني والدارقطني والأصبهاني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى يوم القيامة بصُحُفٍ مُخَتَّمةٍ، فتُنْصَب بين يدي الله، فيقول الله عز وجل: الْقُوا هذه، واقْبَلُوا هذه. فتقول الملائكة: وعزتك، ما كتبنا إلا ما عمل. فيقول عز وجل: إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي»[٢].

لطيفة

قال علماء الصوفية: من وزن أعماله وأنفاسه في الدنيا بميزان العدل فهو من العابدين، ومن وزنه حركاته فهو من المحبِّين، ومن وزن خطراته فهو من العارفين، وميزان العدل ثلاثة:

الأول: ميزان النَّفْس والروح، فمن وزنهما بميزان الأمر والنهي، بكفَّةِ الكِتَابِ والسنَّة، نال الدرجات في الجنَّات.

الثاني: وميزان القلب والعقل، فمن وزن حركتهما بميزان الثواب والعقاب، بكفَّةِ الوعد والوعيد، نال أسنى الدرجات.

الثالث: وميزان المعرفة والسّر، فمن وزنهما بميزان الرضا والسخط بكفة الطلب والهرب، سلم مما هرب، وفاز بما طلب، ومن أراد الوصول إلى المسبَّب، فعليه بالهرب من السبب، فإنه حجاب كل طالبٍ.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» [ص٣٥]، وهناد في «الزهد» [١/ ٢٦٧، ٢٦٨]، وأبو نعيم في «الحلية» [٥/ ٢٣٥].

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» [١٠٥٧]، والبزار في «مسنده» [٤/ ١٥٧ كشف].

تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ ففيه توعد شديد، وتخويف وتهديد. و«نا» فاعل، و«الباء» زائدة، نحو: كفى بالله، والظاهر، كما قال أبو حيان في «النهر»: إن حاسبين تمييز. لقبوله «من»، ويجوز أن يكون حالاً.

وقال الزجاج في هذه الآية: هذا خبر، ومعناه الأمر، أي: اكتفوا بنا. وأصل الحساب: العَدُّ والإحصاء.

قال الثعلبي: ومعنى الحساب: تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوا من ذلك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وقال بعضهم: معنى كونه تعالى مُحَاسباً لخلقه: أنه تعالى يُعْلِمُهُم ما لهم وعليهم. قال الفخر: بأن يخلق الله في قلوبهم العلوم الضرورية، وكيفياتها، بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب[١].

وقال بعضهم: إنه تعالى يكلم عباده في أحوال أعمالهم، من الثواب والعقاب، لما في البخاري: عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه»[٢].

قال الفخر: فمن قال: إن كلامه تعالى ليس بصوت ولا حرف، قال: إن الله يخلق في أُذن المكلَّف سمعاً يسمع به كلامه القديم، كما أنه يخلق في عينيه رؤية يرى بها ذاته القديمة، ومن قال: إنه صوت، قال: إن الله تعالى يخلق كلاماً يسمعه كل مكلف، إما أن يخلق ذلك الكلام في أُذُن كل واحد منهم، أو في جسم يقرب من أذنه، بحيث لا تبلغ قوّةُ ذلك الصوت أن تمنع الغير من فَهْمِ ما كان.

قال: وهذا هو المراد من كونه تعالى محاسباً لخلقه.

ونقل عن ابن عباس: إنه لا حساب على الخَلْقِ، بل يقفون بين يدي الله تعالى، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويقال: هذه سيئاتكم، قد تجاوزت عنها. ثم يعطون حسناتهم، ويقال: هذه حسناتكم، قد ضاعفتها لكم.

وهذا معارض بالأحاديث الصحيحة.

روى الإمام مسلم: أن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى

---

(١) انظر زاد المسير [٥/٣٥٥]، وروح المعاني للألوسي [١٧/٥٦].

(٢) صحيح، رواه البخاري [٦٥٣٩]، [٧٥١٢].

يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن عمله ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه»(١).

وروى ابن المبارك وأبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، يقول الله لملائكته: انظروا إلى صلاة عبدي، أتمّها أم نقصها، فإن كانت تامة كُتِبَتْ له تامة، وإن كان ينقص منها شيئاً، قال الله: انظروا هل لعبدي من تطوّع، فإن كان له تطوع، قال: أتمّوا لعبدي فريضته مِنْ تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك»(٢).

وفي النسائي: عن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه: أول ما يحاسب عليه العبد صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء.

وقال الإمام الفخر، في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾(٣) [الأعراف: ٦].

هذه الآية، تدل على أنه تعالى، يحاسب كل عباده لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا مرسلين أو مرسلاً إليهم، ويبطل قول من زعم أنه لا حساب على الأنبياء عليهم السلام، ولا الكفار(٤). انتهى.

ويمكن الجواب، وهو أن يقال: لا حساب على الأنبياء، حساب مناقشة. قال النسفي في «بحر الكلام»: الأنبياء لا حِساب عليهم، وكذلك أطفالُ المؤمنين، والعَشْرَةُ المبشَّرَةُ بالجنة. هذا في حساب المناقشة، أما حساب العرض، فلا، وهو أن يقال: فعلت كذا، وعفوتُ عنك. وحساب المناقشة: لم فعلت كذا؟

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»، فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨]؟

---

(١) هذا الحديث لم يروه مسلم في «صحيحه» بل رواه الدارمي في «سننه» [١/ ١٣٥]، والخطيب في «التاريخ» [١١/ ٤٤١]، و «جامع الأخلاق» [٢٨]، و«اقتضاء العلم العمل» [٢] عن معاذ. ورواه الترمذي [٢٤١٦] والبيهقي في «الزهد» [٧١١] عن ابن مسعود، وقال: حديث غريب.

(٢) رواه أبو داود [٨٦٤، ٨٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وابن ماجه [١٤٢٥]، وأحمد [٢/ ٢٩٠]، والنسائي [١/ ٢٣٢، ٢٣٣].

(٣) رواه البخاري [٦٨٦٤]، ومسلم [١٦٧٨]، والترمذي [١٣٩٦، ١٣٩٧]، والنسائي [٧/ ٨٣]، بنحوه مختصراً وتاماً.

(٤) انظر تفسير الرازي [١٤/ ٢٤].

قال: «ليس ذاكِ الحساب، ولكن ذاك العَرْضُ، من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب»[(١)].

قلت: وعلى هذا يحمل كل حديث وَرَدَ في حق من يدخل الجنة بغير حساب، فمن ذلك: حديث البزّار: «من ابتلي ببصره فصبر حتى يلقى الله لقي الله ولا حساب عليه»[(٢)].

وحديث جابر: «من مات في طريق مكة، ذاهباً أو راجعاً، لم يُعْرَض، ولم يحاسب»[(٣)]. وحديث أبي أيوب الأنصاري: «طالب العلم، والمرأة المطيعة لزوجها، والولد البارّ بوالديه، يدخلون الجنة بغير حساب».

وحديث عائشة: «من ربى صبيّاً حتى يقول: لا إله إلا الله لم يحاسبه الله»[(٤)]، إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرتها في «بهجة الناظرين وآيات المستدلين»، والله سبحانه أعلم.

خاتمة

وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بسرعة حساب الخلائق، مع كثرة عددهم، وكثرة أعمالهم، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ليدل على كمال قدرته، ووجوب الحذر منه. روي أنه تعالى يحاسب الخَلْقَ في قدر حلب شاة، وروي في مقدار فواق ناقة، وروي في مقدار لمحة، كذا حكاه الزمخشري في «تفسيره»، والله تعالى على ما يشاء قدير.

قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر، حكاه الثعلبي عنه، وقال ابن عطية: قيل لعلي بن أبي طالب: كيف يحاسب الله الخلائق يوم القيامة؟ فقال: كما يرزقهم في يوم. وفي الحديث: لا ينتصف النهار حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار[(٥)]. وقد قيل: إنه سبحانه إذا حاسب واحداً فقد حاسب جميع الخلائق.

---

(١) صحيح، رواه البخاري [٦٥٣٦]، [٦٥٣٧]، ومسلم [٢٨٧٦]، وأحمد في «المسند» [٦/ ٤٧، ٤٨، ٤٩، ١٠٨، ١٢٧، ١٨٥، ٢٠٦].

(٢) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» [٢/٣٠٨] وعزاه للبزار وقال فيه: جابر الجعفي، فيه كلام كثير وقد وثق.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» [٤/ ١٤٥٥]، والديلمي في «الفردوس» [٥٥٦٠] وحسنه العراقي في المغني [ص١١٨].

(٤) أورده الذهبي في «الميزان» [١/ ٢٢] وقال عنه: باطل.

(٥) رواه الحاكم في «مستدركه» [٢/ ٤٠٢] وصححه، ووافقه الذهبي.

قال بعض العارفين: من غريب حكم الآخرة أن الرجل يؤتى به إلى الله، فيوقفه، وتوزن حسناته وسيئاته، وهو يظن أن الله تعالى ما حاسب أحداً سواه، وقد حوسب في تلك اللحظة آلافُ ألوف، وما لا يمكن حصره.

قلت: ولعل السر في هذا، وتقريبه للعقول، أن معنى الحساب ما قال المفسرون: هو تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، وهذا قريب للعقل جداً، بأن يخلق الله في قلوبهم العلوم الضرورية، بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب، في لحظة واحدة، فتأمل!!.

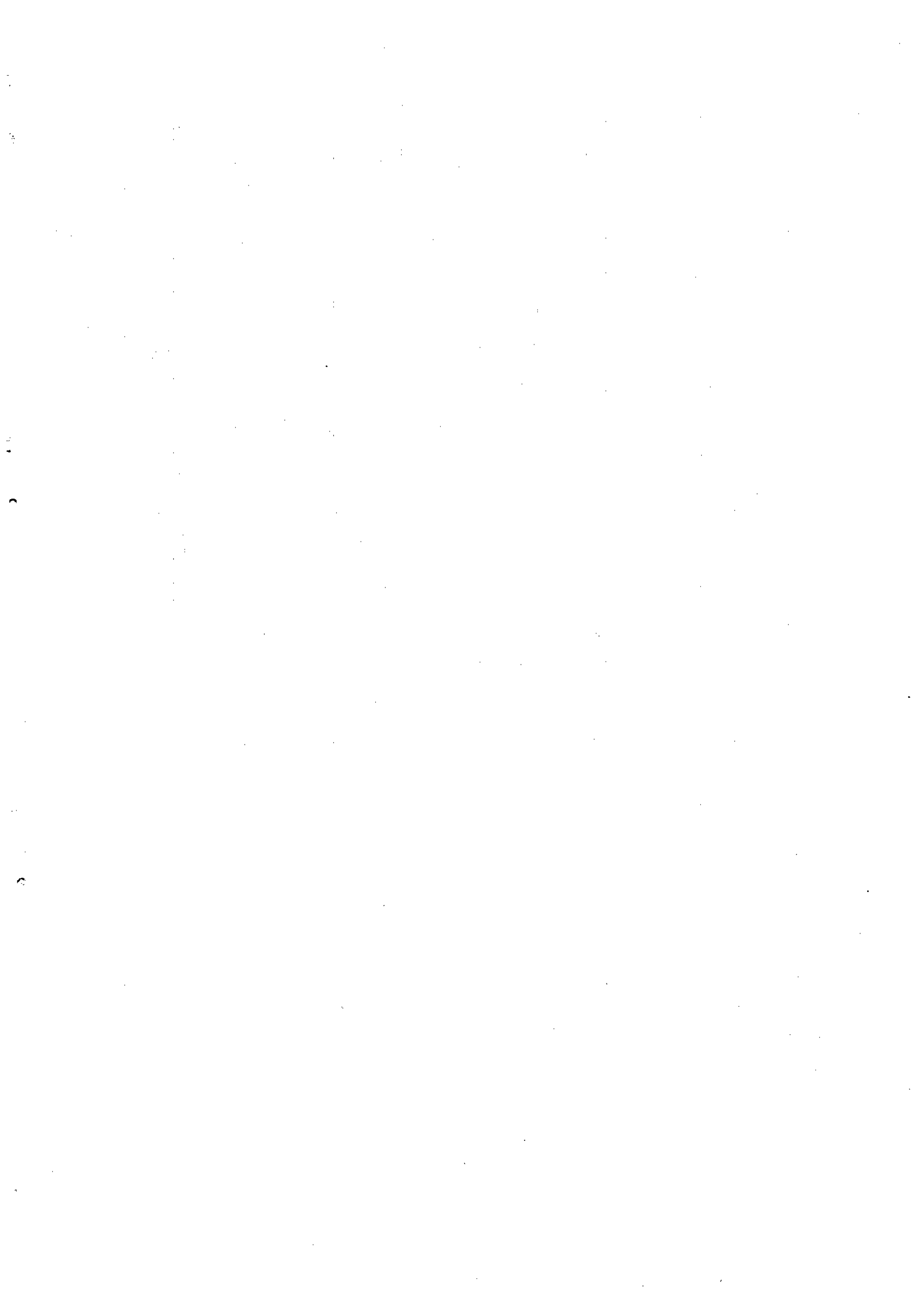
والكلام على هذه الآية الشريفة مما يطول، وفيما ذكرناه من هذه الألفاظ القليلة موعظة للمتقين، وتبصرة للعارفين، جعلنا الله تعالى منهم، آمين آمين.

والحمد لله رب العالمين.

قال مؤلفه الحقير: مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي: فرغتُ منه بالأزهر، نهار الأحد، آخر رمضان، سنة ثلاث وعشرين بعد الألف.

وكتبت نهار الثلاثاء، في غاية جمادى الأخير، سنة ١١٤٣، بقلم الفقير الحقير أحمد بن مصطفى بن يوسف بن يحيى بن يوسف المقدسي الحنبلي، غفر الله له، ولوالديه، ولمن دعا له بالمغفرة، ولمن نظر فيه، ولمن طالع فيه، ولصاحبه ولوالديه، ولمشايخنا، ولمن علّمنا، ولكل المسلمين، آمين.

بلغ مقابلة على خط مؤلّفه، ونقلت منه هذه النسخة، رحمه الله تعالى، آمين.



فهرس المحتويات

كتاب بيان أحوال الناس يوم القيامة

كتاب الفتن والبلايا والمحن والرزايا

كتاب القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراط الساعة

كتاب تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان